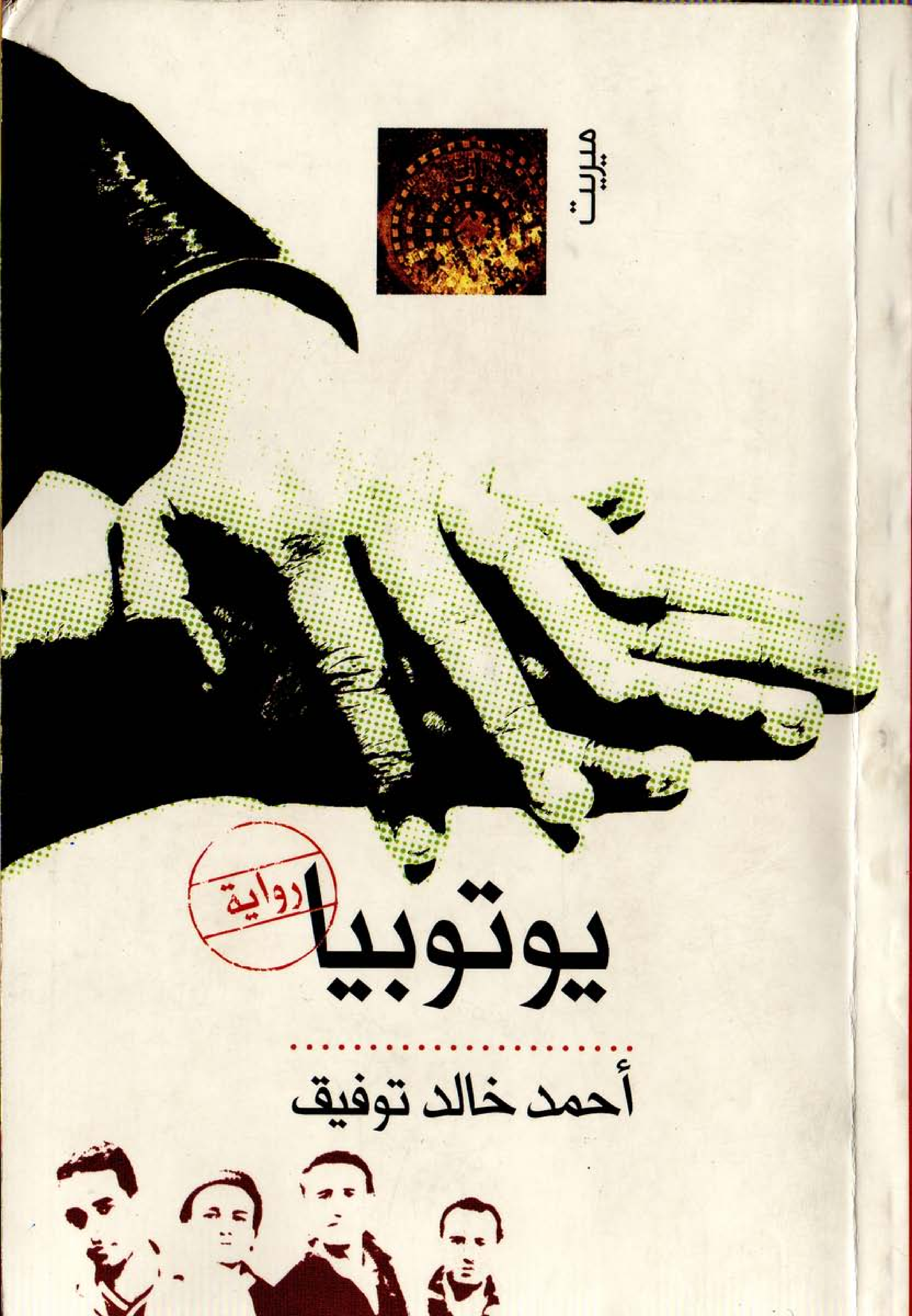

ميريت
رواية
يوتوبيا
أحمد خالد توفيق

يوتوبيا
رواية

أحمد خالد توفيق

الطبعة الأولى ٢٠٠٨.
(c) دار ميريت
٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة
تليفون / فاكس: ٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)
www.darmerit.net
merit56@hotmail.com

الغلاف : أحمد اللباد

المدير العام : محمد هاشم

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٢٧٣٩٣

الترقيم الدولى: 977-351-391-2

أحمد خالد توفيق

يوتوبيا

رواية

دار ميريت
القاهرة 2008

اهداء الى

Looloo

و كل المتواجدين

بالمقر السرى

لمكتبة الديفيدى

LL

يوتوبيا المذكورة هنا موضع تخيلي، وكذلك الشخصيات التــي تعيش فيها ومن حولها، وإن كان المؤلف يدرك يقينًا أن هذا المكان سيكون موجودًا عما قريب. أي تشابه للمكان والشخصــيات مع أماكن وشخصيات (في الواقع الحالي) هو محض مصادفة غير مقصودة.

حقًا إنني أعيش في زمن أسود..

الكلمة الطيبة لا تجد من يسمعها..

الجبهة الصافية تفضح الخيانة..

والذي ما زال يضحك..

لم يسمع بعد بالنبأ الرهيب ..

أي زمن هذا ؟

برتولت بريخت

الجزء الأول

الصياد

-1-

كأنــه الملصــق الشــهير القديم لفيلم الفصيلة .. هذا ما جال بذهني وقتها ..

السبب هو أنني أعلق هذه الصورة فوق فراشي ..

ولــيام دافو ينظر للسماء – التي لم يعد يفصله عنها شيء – رافعًــا ذراعيه كأنه في صلاة أخيرة، وقد جثا على ركبتيه بعد ما مزقته الرصاصات .. عندما يصير الموت أكبر من الحياة ذاتها.. عندما يصير الموت ضربًا من الجمال الفني ..

المشهد كان مهيبًا خاصة أنه ليس على شاشة التلفزيون.. كل شيء حقيقي مروع قاس .. و..

وفاتن..

لا تنكرن هذا من فضلك..

رأيــته وهــو يــتوقف وقد أنهكه التعب .. بفقر الدم والجوع اللذين يفتكان به لا يمكنه أن يخوض هذه المطاردة للنهاية.. رأيته ينحنــي ليلصــق كفيه بركبتيه طلبًا للهواء، ثم رأيته ينظر لأعلى بيــنما الهليوكوبتر تدور حوله في تؤدة ودون قلق .. إن معها كل الوقت .. لا يوجد هدف أوضح من رجل مجرد من السلاح وسط رمــال الصحراء .. رجل أنهكه الركض ...رجل أنهكه الجوع .. رجل أنهكه القنوط ....

لا تقاوم يا أحمق !... ما الذي تمنحك إياه لحظات أخرى من العيش مع الأغيار ؟.. ما الذي لم تحققه في سنواتك العشرين السابقة وتنوي أن تحققه لو ظللت حيًا ؟... فرارك هذا لا يختلف عن فرار الصرصور على جدار مطبخ، أو أميبا تتزلق تحت عدسة مجهر ... صرخة غريزة لا أكثر .. إنه تفاعل التحاشي الذي زرعته الطبيعة فيك، وعليك أن تتعلم كيف تهمله كي تظفر براحة استحققتها...

انطلقت الرشاشات فنظر لأعلى .. نعم .. هذه الطلقات من أجلك أنت ..

ترسم ذلك الخط الطويل على الرمال .. الخط الذي يمر بك أنت ...

وليام دافو في ملصق الفصيلة ...

خطر ببالي إن مخرجي السينما حمقى عندما يظهرون المصاب بالرصاص يسقط على الأرض فورًا .. كلا .. لقد نظر لأعلى وبدا كأنه يريد أن يقول شيئًا ثم سقط على الأرض ووجهه في الرمال ..

شهقت جرمينال رعبًا لكني لمحت في عينيها ذلك البريق .. بريق إثارة لا شك فيها .. صدرها يعلو ويهبط .. وتلامست أصابعنا حيث وقفنا هناك خلف السلك نرمق الهليوكوبتر تنخفض مبعثرة سحب الرمال من حولها، ثم الحارس الأمريكي يثب منها ليتفحص الجثة .. يركلها بطرف حذائه ثم ينحني ليتحسس الشريان السباتي ..

يرفع سبابته لأعلى ويصيح: -" Lovely !! "

ثم يركض نحو الطائرة وفي ثوان يرتفع الوحش الأسطوري بعد ما أنهى مهمة الصيد ... كل هؤلاء الحراس من رجال (المارينز) المتقاعدين ولا أعرف سبب ذلك، لكنهم بالتأكيد لا يفتقرون إلى اللياقة البدنية..

شهقت جرمينال رعبًا ..

شهقت جرمينال نشوة ...

الموت .. اللعبة العظمى التي لم نجربها بعد .....

أقف أمام المرآة ..

أتأكد من أن شعري حليق بطريقة هنود الموهيكان الشهيرة .. أصلع على جانبي الرأس والخصلة البنفسجية العالية في المنتصف مثل ديك بري ثائر.. الصدر عار إلا من عدة قلائد عملاقة.. هناك جماجم وأيقونات من سحر الفودوو .. لست عابد شيطان .. في الواقع أنا لا أصدق وجود شيء على الإطلاق، لكن هذه الأشياء تبدو مثيرة على صدري ...

الوشم كذلك غريب .. إنه يروق للفتيات هنا .. السروال المصمم بعناية بحيث يظهرك في مظهر أكثر فحولة، وهو قصير يظهر ربلتي الساقين .. أحيانا أمارس الحفاء لكن ليس اليوم .. أعلق القرط الجديد في غضروف أنفي والقرط الآخر في حاجبي.. لن أضع حلية اللسان اليوم .. ثم بصبر أقوم بتلوين أسناني .. اللون الأحمر للنابين والأصفر للقواطع .. الأزرق للضروس ..

هذه الصبغة ممتازة ولا تزول بسهولة .. يقولون إنها غير سامة.. من يبالي بهذا ؟.. ليتها كانت سامة ..

أضع العدسات الملتصقة الجديدة التي تجعل لون العينين أبيض .. تأثير مثير للفتيات أن ترمقهن بعيون مبيضة كأنك الموت .. هذا يقهرهن فعلاً...

أتأكد من أن الجرح على جبيني مفتوح .. أعالج حافته بعناية ليبدو داميا .. إن الجروح مثيرة بلا شك .. ظهرت هذه الموضة منذ عامين وصار لها متخصصون .. المهم أن يبدو الجرح بشعًا قدر الإمكان ويبدو صناعيًا كذلك حتى لا يشمئز من يراه .. هذا فن حقيقي ..

هذا الجرح أجراه لي طبيب إسرائيلي متخصص في هذا الفن.. يقول إنه درسه في نيويورك .. كان اسمه (إيلي)، وكان شابًا ظريفًا .. قال لي إن أباه أصيب بجرح مماثل في حرب عام 1973 مع المصريين، وسألني إن كنت أذكر شيئًا عن الموضوع .. قلت له إن لي عمًا توفي في هذه الحرب، لكنني لا أعرف التفاصيل ... هذه أمور مر عليها خمسون عامًا ... لا أعرف لماذا – في حقبة ما – كان المصريون يكرهون الإسرائيليين ؟، لكنني لا أهتم بفهم هذه الأمور .. ربما ذهبت للحرب لو طلب مني هذا لسبب واحد هو كسر روتين الحياة .. أن تمشي وسط طلقات الرصاص في صحراء تتناثر فيها جثث الموتى !... كم أن هذا رائع ..

* * *

في (يوتوبيا)....

حيث يتوارى الموت خلف الأسلاك الشائكة، فلا يصير إلا لعبة يحلم بها المراهقون ...

(يوتوبيا)...

ستة عشر عامًا من عمرك وأنت لا تنتمي إلا إلى يوتوبيا .. أنت مواطن (يوتوباوي) ذوبتك الحياة المترفة وذوبك الملل، فصرت لا تعرف الأمريكي من المصري من الإسرائيلي ... صرت لا تعرف نفسك من الآخرين .. لولا بقايا الشهوة في عروقك لما عرفت الذكر من الأنثى ...

من أنا ؟.. دعنا من الأسماء .. ما قيمة الأسماء عندما لا تختلف عن أي واحد آخر ؟

قال لي سالم بيه:

ـ"أنت تقرأ كثيرًا .. أنت مجنون .."

قلت له إن القراءة بالنسبة لي نوع رخيص من المخدرات. لا أفعل بها شيئًا سوى الغياب عن الوعي. في الماضي – تصور هذا – كانوا يقرءون من أجل اكتساب الوعي.

أنا لم أعد طفلاً... لقد تجاوزت السادسة عشرة .. قرأت كل كتاب وقع في يدي حتى اكتفيت.. إن الكتب سلعة نادرة هنا لكني وجدت كنزا منها عند (سالم) بيه رئيس تحرير تلك الجريدة الذي يعيش على بعد مائتي متر من بيتي . لديه كتب كثيرة جدًا، وقد بدأت القراءة على سبيل التحدي لأن (مراد) لا يقرأ وكذا (لارين). من الجميل أن تفعل شيئًا لا يطيقانه ..

لسبب ما عشقت هذه الطريقة ووجدت فيها عوالم سحرية أنفذ إليها كلما أردت، وكان سالم بيه يرمقني في دهشة كلما زرت مكتبته ويقول:

ـ"صدقني يا بني .. لا شيء في هذه الكتب يهم .. أنا أقتنيها لأنها تجعل منظر المكتب أنيقًا، لكن الحياة هي المعلم الوحيد لك"

لم أكن أرد .. فقط كنت آخذ منه عشرة كتب في المرة، وأناوله بعض شرائط (اللييبيدافرو) التي سرقتها من أبي. سالم أرمل لم يتزوج ثانية .. هكذا يمكنني أن أخمن ما ينوي عمله باللييبيدافرو. وبهذا قرأت قبل سن السادسة عشرة معظم ما وجدته من كتب فلسفة ودين وروايات .. لم أحب قط قراءة السياسة ولم أهتم بها وكذلك التاريخ .. قرأت الكثير كذلك على شبكة الإنترنت، ويبدو أنني قرأت أكثر من اللازم لأنني لم أعد أطيق رؤية كتاب آخر .. لهذا السبب أنا أكثر ثقافة من أقراني بلا شك..

في سني الصغيرة نسبيًا هذه كونت قناعة لا بأس بها هي انه لا جديد تحت الشمس ولا يوجد شيء واحد يمكن تعلمه بعد هذا .. هناك خلل اجتماعي أدى إلى ما نحن فيه، لكنه خلل يجب أن يستمر .. كل من يحاول الإصلاح يجازف بأن نفقد كل شيء . هذا وضع شبيه بالمكارثية في الولايات المتحدة، عندما شعر الأمريكان في القرن الماضي أن عليهم أن يقهروا كل نزعة يسارية لأنها تهدد كيانهم ذاته .. هذا ما حكاه لي سالم بيه ..

عاشرت كل فتاة راقت لي، وجربت كل أنواع المخدرات حتى (الفلوجستين) الجديد الوارد من الدانمرك، الذي له رائحة

الليمون .. يقولون إنه باهظ الثمن لكن ما معنى باهظ الثمن ؟.. هذه الكلمة نلوكها بفمنا دون أن نعرف معناها .. ما اعرفه هو أنه يأخذني بعيدًا بمجرد أن تضع قطرة منه على جلد ساعدك، وعندها ترى تلك النيران الفاتنة التي استمد منها اسمه .. تفيق بعد ساعات لتدرك أنك بحاجة للمزيد ..

كنت قد بدأت تجاربي بالماريجوانا ... لا بأس بها .. جربت عقار (إكستازي) وجربت LSD .. مشكلة هذا الأخير هي أنك بالفعل لا تضمن أن تظل حيًا حتى تفيق .. من كل مجموعة لابد من واحد لا يتعاطاه كي يراقب الآخرين، ويطلقون عليه اسم (حارس الرحلة) .. عندما تتسلل الأيوفوريا إلى عقولهم يكون الوثب من الشرفة أو إشعال النار في النفس أو التحديق في قرص الشمس حتى العمى أمورًا منطقية جدًا ... هذا مثير لكنني لا أحب أن أصير كفيفًا ما تبقى لي من عمر ...

جربت عقاقير كثيرة جدًا .. نبتاعها من الحراس الأمريكيين، ولكن مشكلة المخدرات هي أنها تفقد إثارتها ما دامت متاحة .. ثمة جزء مهم من اللعبة هو التحريم والندرة.. أن تتعاطاها خائفًا .. تتعاطاها قلقًا بصدد الجرعة التالية .. عندما تتاح المخدرات في كل وقت تفقد أية لذة لها ... تصير مملة سوقية ..

لم يعتد أبواي مراقبتي بهذا الصدد ... لا احد يتدخل في حياتي على كل حال .. من حقي أن أتعاطى أي شيء بأية كمية وبأي ثمن، وإلا فما كان عليهما أن ينجباني ...

ليست الأبوة عملاً عظيماً لهذا الحد .. بوسعي أن أكون أبًا لألف ابن لو أعطيتني ألف امرأة، ولأكونن لك شاكرًا ...

اليوم أخبرت (لارين) أن (سوزان) حبلى ...

لقد صار هذا روتينا في حياتنا .. لا أعرف سبب الخصوبة التي رزقتني بها الطبيعة .. أبي لم ينجب سواي ولا أعتقد أنه كان يقدر على إنجاب آخرين، لكني جئت الكون كارثة حقيقية .. ألمس الفتاة فتأتيني بعد شهر لتقول إن الأعراض زارتها .. ما من فتاة فوق الثانية عشرة هنا لم تجرب هذه الأعراض وتألفها .. والنتيجة واحدة على كل حال .. سوف آخذ من لارين شيئًا وأعطيه للفتاة .. والفتاة سوف تقصد المركز الطبي لتتخلص من هذا الكابوس ... جراحة يوم واحد تنتهي سريعًا . فقط تضطر الفتاة للحياة بلا جنس لمدة شهرين وهذا ممل بحق ...

(سوزان) .. (كاتي)... (مايا)... (جرمينال)... لكني أفضل الأخيرة لسبب لا أدريه .. ليس الحب طبعًا .. مثيرة جنسيًا ؟.. ربما .. لكني لم أعد أعرف إن كانت الفتاة مثيرة أم لا لأنهن يتشابهن في كل شيء..

قالت لي لارين في ضيق:

ـــ"ألا تفعل شيئًا آخر بحياتك سوى النوم مع الفتيات ؟.. لقد صار هذا مملاً..."

قلت وانا أفرد ساقي على المنضدة أمامي:

ـــ"ربما كنت شهوانيًا كالخنازير.. هذا ليس ذنبي.. إنها الهرمونات"

ـــ"ليت الأمر كذلك، لكني بالفعل لا أتصورك تشعر باشتهاء أو رغبة .. أنت تفعل هذا بداعي الملل لا أكثر .."

قلت بذات اللهجة:

ـــ"ربما كنت ملولاً .. هذا ليس ذنبي كذلك"

وماذا بوسعك أن تفعل في هذه الجنة الصناعية ؟.. تنام .. تتعاطى المخدرات .. تأكل حتى يزهق الطعام أنفاسك .. تقيء حتى تتمكن من معاودة لذة الأكل... تمارس الجنس (من الطريف أن تلاحظ كيف يجعل الملل سلوكك الجنسي عدوانيًا ساديًا).. لو كنت تعرف طريقة أخرى يمارس بها المرء حياته فلسوف يسعدني أن تقولها ..

أنا وجدت طريقة .....

أنا لم أعد طفلاً كما قلت لك.. (رامي) خاض تجربة الصيد ومعها ذاق الكثير من المرح.. (شادي) فعلها .. (أكمل) جربها ولم يستطع أن يخفي شيئًا عنا .. لقد عرض علينا التذكار الذي جلبه من هناك، ويبدو أنه كان تحت تأثير البانجو، ذلك المخدر الرديء الذي كانوا يتعاطونه في أوائل القرن .. طبعًا في العام 2020 صار الفلوجستين هو اسم اللعبة ..

قررت أن أجرب بنفسي ..

إنها (يوتوبيا)... حيث يضنيك البحث عن طريقة تزجي بها كل دقيقة من حياتك ....

-2-

أنا أعرف لماذا فعلها (راسم)...

ستة عشر عامًا .. وقرون من الخبرات المتراكمة ..

مثل أباطرة الرومان قد جربت كل شيء وعرفت كل شيء..

ليس هناك من جديد يثير فضولك أو حماسك في (يوتوبيا) .. لا شيء يتغير .. أحيانًا يخيل لي أننا معتقلون وأن الذين بالخارج هم الأحرار .. يذكرك الأمر بمعسكرات الاعتقال النازية التي تراها في أفلام الحرب ..

(يوتوبيا)... المستعمرة المنعزلة التي كونها الأثرياء على الساحل الشمالي ليحموا أنفسهم من بحر الفقر الغاضب بالخارج، والتي صارت تحوي كل شيء يريدونه ..

يمكنك أن ترى معي معالمها.. البوابات العملاقة .. السلك المكهرب .. دوريات الحراسة التي تقوم بها شركة (سيفكو) التي يتكون أكثر العاملين فيها من (مارينز) متقاعدين .. أحيانًا يحاول أحد الفقراء التسلل للداخل من دون تصريح، فتلاحقه طائرة الهليوكوبتر وتقتله كما حدث في ذلك المشهد الذي لا يفارق خيالي..

بعد هذا منطقة الحدائق .. منطقة المدارس المخصصة لإقناع الآباء أنهم ما زالوا كذلك.. منطقة دور العبادة التي بها أكثر من مسجد وكنيسة ومعبد يهودي .. البعض هنا ما زال مصرًا على أن يخاطب ذاتًا عليا لا يراها، ولكن جيل الشباب قد تخلص من هذه العادة على كل حال .. أعتقد أن سبب تشبث الكبار بذلك هو خشيتهم من أن يفقدوا كل شيء في لحظة .. أن يضيع التميز .. أن يجدوا أنفسهم في الخارج . إنهم لم يشعروا بعد بأنهم يستحقون ما هم فيه، بينما جيل الأبناء جاء الدنيا معتبرًا أن كل شيء من حقه. الكبار على كل حال قد كفوا عن نصح أبنائهم بأن يحذوا حذوهم .

هناك سبب آخر مهم في رأيي، هو ولع الكبار بأن يجمعوا بين طابعي الثراء والورع .. الثراء والورع ثنائي محفور كما يبدو في عقول جيل الآباء المصريين منذ دهور. صورة الحاج (عبد السميع) النازل من الطائرة العائدة من الحجاز، والعباءة الواسعة غالية الثمن على كتفيه وهو يوزع المال باليمين والشمال، وعلى وجهه ابتسامة وقور متئدة. رائحة عطره الثمين الفاغم ومسبحته الذهبية .. يبدو أن هذه الصورة محفورة في أذهان آبائنا فعلاً. أنا قرأت في الأديان قليلاً، وارتبطت فكرة الزهد بالورع في ذهني، دعك من أننا نعرف بعضنا .. كل هذا الورع لن يقنعني بأنهم لا يعاقرون الخمور ويغتصبون نساء الأغيار ورجالهم طيلة الوقت .. لقد صنعوا ثرواتهم من لحم الأغيار وأحلامهم وآمالهم

وكبريائهم وصحتهم، لهذا يبدو لي ما يقومون به غريبًا لكنه شأنهم على كل حال.

منطقة المولات .. هنا يمكنك أن تبتاع الفلوجستين بشكل غير رسمي من بعض رجال الأمن .. ثم ترى القصور .. قصر (علوي) بك ملك الحديد .. قصر (عدنان) بك ملك اللحوم .. قصر أبي ملك الدواء.. ثم المطار الداخلي .. هناك مطار طبعًا حتى لا تضطر للخروج .. في الماضي كان يسيطر على قومي هاجس الهرب للمطار لو أن الآخرين بالخارج ثاروا .. رحلة المطار ستكون شاقة ومريعة وخطرة .. سوف يعترض الأغيار طريق السيارات ويمزقون من فيها .. أنا أعرف هذه الأمور لأنني أقرأ كثيرًا .. القصص كثيرة بدءًا بالثورة الفرنسية حينما جاب الرعاع شوارع باريس وهم يعلقون ثديي الأميرة (دي لامبال) على رمحين، وانتهاء بالثورة الإيرانية في سبعينات القرن العشرين؛ عندما وجد مدير (السافاك) – على ما أذكر – سيارته محمولة فوق الأعناق وهو فيها، من ثم لم يجد حلاً إلا أن يدس المسدس في فمه ويضغط الزناد .. رباه !... حتى وأنا أكتب هذه الكلمات شعرت بقشعريرة لذة !... مسدس في فمك .. معدن بارد .. وضغطة تنهي كل شيء !..

خشية من رحلة المطار هذه قرر قومي أن يبنوا مطاراتهم الخاصة داخل مجتمعاتهم .. مع الوقت لم يعد هناك خطر من الثورة، لكن المطارات ظلت في مكانها على سبيل الترف ..

عندما تخترق آخر حدود التعقل تشعر بأن التعقل يتمدد ليضم لنفسه حدودًا أخرى يسيطر عليها الاعتياد والملل والرتابة .. حتى إفراغ مثانتك في حوض المطبخ يبدو متعقلاً مملاً...

المجلس .. دخان التبغ ينعقد .. المكتب العملاق في بناية الاتحاد، ونظرة الحكمة في عيون الكبار ... دقات الساعة .. كلمات .. كلمات .. سمعتها حتى لم تعد ذات معنى ..

* * *

ـ"نحن أسرة واحدة .. الخ ... لسنا مثل الأغيار ... الخ ...."

للمرة الألف ...

هو ذا (راسم) يتظاهر بالمبالاة .. يمزجها بالخجل والندم .. أتحدى أن تجد عاطفة واحدة سبيلها إلى هذا الوجه الميت المتصلب .. عينان ميتتان تذكرانك بعيون القتلة في ذلك العالم الخارجي عندما تقتنصهم عدسات الكاميرا .. رجل يقتل زوجته وعشيقها ثم يجلس على المقهى .. امرأة تقتل طفلة من أجل قرط لا يساوي أكثر من مائة جنيه .. ثُم تظهر الصورة في صفحات الحوادث .. عندها سوف ترى هاتين العينين ..

لكنه كذلك ـ راسم - يتكلم .. الأحمق يتكلم:

ـ"حقًا لا أعرف ما دهاني كي ......"

للمرة المليون ....

يقول الحكيم الأكبر بصوت رنان يروق له شخصيًا من دون شك:

ـ"نحن لا نقحم أي طرف في مشاكلنا .. سوف يتعهد (عزام بك) بدفع ثمن الـ ....الخ .. ابنك هو ابني والعكس .. الخ ...."

و(عزام بك) يتعهد في وقار بدفع ثمن الـ ...... وهو يداعب حبيبات مسبحته الذهبية ...

جلسة عائلية تضم علية القوم في يوتوبيا، فهذا المجتمع قد أفرز قوانينه الخاصة ومحاكمه. هناك شاب قد أخطأ أو فعل ما يوجب حنق الكبار عليه .. الأخطاء هنا هي أن تدمر الملكية الفردية لآخر من يوتوبيا أو تسطو عليها .. (راسم) قد أفرط في الشراب فدمر جزءًا من مول (إليت) الخاص بمصطفى بك .. ربما سرق شيئًا .. لا أحد بحاجة للسرقة، لكنك بحاجة إلى إثارة وتوتر وإثم السرقة .. الكلبتومانيا أو داء الولع بالسرقة هو سبب أكثر الجرائم هنا، والباقي يحدث في لحظة سكر بين أصدقاء لم يعودوا كذلك ... لحظة جنون ..

هذه النزاعات تتم تسويتها في مجالس مشابهة .. وعامة يكون التفاهم حاضرًا والاستعداد للترضية متوافرًا .. لا أحد يريد للخلافات أن تخرج من يوتوبيا ..

الإثارة ..

الإثم ..

التعدي ..

خرق القواعد ..

التحدي ..

كسر التابو ...

المشاغبة ..

المخالفة ..

الهدم ..

التوتر ..

الأدرينالين ..

التغيير ..

التمرد ..

الانحلال ..

الصدمة ..

التميز ..

الدهشة ..

هذا هو اسم اللعبة ..

لأسباب كهذه وفي ليلة كهذه نام (راسم) مستسلمًا وترك لثلاثة من رفاقه أن يفعلوا به ما يشاءون ..

لأسباب كهذه يستحضرون الأرواح بلا توقف .. هي ليست أرواحًا يا حمقى .. إنه عقلكم الباطن يعبث بكم عن طريق ما يدعى بالـ ideomotor effect . لهذا يتحرك لوح الويجا لأنكم تريدون هذا..

ولأسباب كهذه يعبثون في المقابر ليلاً.. (أكمل) تحدث عن النكروفيليا أو مضاجعة الموتى، لكن الأمر لم يبد لي مغريًا وأعتقد أنك توافقني ..

لأسباب كهذه لا تستعصي أية فتاة عليك هنا أكثر من ثلاثة أيام ....وعندما تخضع لك لن تصدق مدى ما هي على استعداد لقبوله بسبب السأم .. لكن هذا لا يثير انبهارك ...

عندما تخترق آخر حدود التعقل تشعر بأن التعقل يتمدد ليضم لنفسه حدودًا أخرى يسيطر عليها الاعتياد والملل والرتابة .....

لأسباب كهذه أريد أن أجرب الخبرة العظمى ...

* * *

ظلام الليل والصحراء ... ظلام الاحتمالات والأفكار .. أعرف أنني أستطيع قهر (جابر) لو هاجمنا .. لن ينتصر الفقر والشحوب وسوء التغذية على الثراء والرياضة منذ الصغر ..

لكن (جابر) يمشي وسط الصحراء بين النباتات الشوكية وبقايا الصبار .. يلتف وراء تل صغير ويطلب منا اللحاق به، فهرعت وجرمينال إلى هناك متوقعين الأسوأ..

* * *

أصحو من النوم ..أفرغ مثانتي .. أدخن .. أشرب القهوة .. أحلق ذقني .. أعالج الجرح في جبهتي ليبدو مريعًا .. أضاجع الخادمة الأفريقية .. أتناول الإفطار ... أصب اللبن على البيض وأمزق كل هذا بالشوكة .. ألقي بالخليط المقزز في القمامة ... أتثاءب .. أضحك .. أبصق ... ألتهم اللحم المحمر .. أدس اصبعي في حلقي .. أدخل غرفة نوم لارين لأفرغ ما بمعدتي على البساط .. أضحك .. أدس إصبعي في أذني .. آخذ زجاجة ويسكي من البار وأجرع منها .. أرقص .. أترنح .. أقف فوق

أريكة .. أتقلب على البساط .. أقرأ الجريدة التي لا تزيد على اجتماعيات يوتوبيا ... كل مستعمرة لها جريدتها الخاصة لكن هناك جرائد عامة لا تستطيع قراءتها من فرط ما فيها من سخف.. أخرج أنبوب الفلوجستين .. أصب قطرات على جلدي .. أنتشي .. أرى النيران الخضر ... أضحك ... أمشي عاريًا في الردهة .. ألبس ثيابي .. أرسم على الجدار بقلم الفحم شعارات تقول: اقتلوا البيض .. لا أعرف معنى هذا ولا من هم البيض لكنهم هكذا يفعلون في السينما .. أشغل بعض موسيقا الأورجازم.. الإيقاع الجديد الذي ظهر منذ عام .. الكبار يشعرون أنه مجرد صراخ مجنون ويترحمون على إيقاعي الهيفي ميتال والديث ميتال الراقيين اللذين اندثرا .. أرقص .. أقيء .. آكل من جديد ..

ساعة واحدة فعلت فيها كل شيء ولم يبق شيء في الحياة يهمني أو أريده !!!!

* * *

في يوتوبيا ما زالت الأم هي الأم .. لا يمكنك التخلص منها (لارين) عائدة من المول حاملة عدة أكياس تحوي ما نحتاج له .. أشياء تؤكل وتشرب وتدهن وتشم وتدهن تحت الإبط وتطلى بها الأظفار .. أعرف أن أكثر ما ابتاعته لا حاجة لنا به .. سوى نتخلص من أكثره .. إنه الملل .. إنه الإحباط .. لا أعرف الكثير عن حياتها الجنسية، لكني أعتقد أن مراد لم ينم معها منذ قرون .. لابد أنه ملها إلى درجة أن الليبيدافرو ذاته لم يعد مجديًا معها.. عندما لا يضاجعك أحد فأنت تبتاع أشياء لست بحاجة لها ..

عـندما لا يضـاجعك أحد فأنت تتعاطى المخدرات خلسة وتشرب الكثير من الخمر .. عندما لا يضاجعك أحد فأنت تتدخل في أمور الآخرين .. قالت شيئًا عن القيء على البساط وطلبت من الخادمة أن تـنظفه .. قالت إن الفلوجستين سوف يقتلني .. قالت إنني أبدد قواي .. قالت . قالت ....

بلا مقدمات قلت لها:

ـ"أنا راغب في تجربة الصيد .."

شهقت ......

قالت في ذعر وقد اتسعت عيناها:

ـ"هـل ينقصك شيء ؟.. معك من المال ما يكفي لتشتري يوتوبيا كلها .."

ـ"وما حولها .."

ـ"لديك من الفتيات ما يشبع شهوات سلطان فحل من سلاطين ألف ليلة وليلة.."

ـ"والفتيان أيضًا.."

ـ"لديك من وسائل التسلية ما يسري عن جيش من اليتامى الباكين"

ـ"وأحفادهم كذلك .."

ـ"إذن ما المشكلة ؟"

ـ"المشكلة هي هذا كله .. لدي كل شيء.. حان وقت الشيء الوحيد الذي لم أجربه ولم أظفر به .."

قالت في هستيريا:

ـ"لو عدت للكلام في هذا الموضوع سأخبر أباك!"

(مـراد) ليس هنا .. إنه في سويسرا يراجع أرقام حساباته .. هـذا نشاط محمود على كل حال لأن هذا يعني انه سيضاعف ما أنفقـه على الفلوجستين .. أحيانًا أتمنى ألا يضيع وقته ويرسل لنا النقود من الخارج ..

قلت لها في تحد:

ـ"(مراد) لا يتدخل في شئوني.. هو أذكى من هذا .."

قالت وهي تلوح بإصبعها في وجهي:

ـ"للمرة الألف .. اسمه بالنسبة لك (بابا) وليس (مراد).. أنا أسـمح لـك بأن تناديني باسمي بدلاً من كلمة (ماما) لكي أحتفظ بصـداقتك، لكن هناك حدودًا يجب ألا تتجاوزها ... وأنا لن اسمح لك بهذا .."

لكنك تدرك على الفور أنها ليست جادة ...

كـل هـذه الأعوام واسمه (مراد).. لا يمكن أن تغير هذا في لحظة لمجرد أنها قررت أن تلعب دور الأم الحازمة ...

لارين لن تقبل لأنها تريد التظاهر بأنها لا تقبل ..

مراد لن يقبل لأنه يجب ألا يقبل ...

إذن ...؟

-3-

عندما تنفتح المقابر وتخرج الشياطين ..
عندما تتناثر جماجم الأطفال في السهول ..
عندما تتلوث أجنحة الملائكة بالدم، وتمارس سندريللا البغاء
عندما يعلن بعلزبول أن الحين قد حان ..
عندها فقط يمكنني أن أغمض عيني مستريحًا ...
وأموت .....

من أغاني الأورجازم

* * *

تـندفع السـيارة التـي تحمل راسم وشادي وريري بسرعة جنونـية .. تـندفع بسرعة ثم تتوقف بفرملة مفاجئة تجعلها تدور كالنحلة حول نفسها ..

هـنا تندفع نحوها السيارة الفيراري التي تخص ماهي .. لو اصـطدمت بها لشطرتها نصفين ... لكن ماهي تجذب فرملة اليد في آخر لحظة لتدور حول نفسها مع عويل تسمعه يوتوبيا كلها..يا بـنت يـا ماهي!...يدير راسم محرك سيارته ويندفع فيوشك على دهـم واحـد مـن الأغيار العاملين هنا، لكن الأحمق وثب على الرصيف المرتفع ..

لسـبب مـا لا أفهمه يصر هؤلاء على أن يعيشوا .. فعلاً لا أمـزح هنا أو أبالغ. لو كنت من الأغيار لتركت عجلات السيارة تمر فوق أحشائي.

كانـت ماهـي قد فرغت من دورتها فانطلقت تلاحق سيارة راسم .. على الأرجح ستدمر السيارتان اليوم .. لكن المشكلة هي أننا لا نموت .. لا أعني أننا خالدون لكننا صرنا أكبر من المرض والحـوادث .. الأغيار يمرضون ويذهبون للعلاج في المستشفى، فتنقلب بهم السيارة التي ما زالت تعمل بالكيروسين في الترعة أو تصـطدم بشـجرة .. ليت الموت متاح بهذه السهولة هنا !.. إذن لكانـت الإثـارة عظمى ... لا أعرف السبب لكن الحوادث نادرة عندنا وعندما تقع لا تقتل أحدًا ..

مـن حين لآخر ترى مطاردة عنيفة بين سيارات الشباب .. غالبًا ما تنقلب سيارة أو اثنتان وهذا يضفي إثارة غير عادية على الحياة، لكنك للأسف لا تستطيع قلب سيارة كل ساعة في اليوم...

لماذا لا ننتحر ؟.. لا أعرف .. الانتحار يبدو سوقيًا و(بلدي) جـدًا .. يذكرك بكل هذا السخف عن الأغيار .. الفتى الفاشل في حبه يحرق نفسه .. يا للسوقية ..!.. كيروسين وضوء خافت وحي شـعبي ودجـاج .. بالـذات الـدجاج ! .. كل هذا يجعل معدتي تـتقلص.. الأب الـذي فشل في إطعام أطفاله .. الفتاة التي تبتلع الأسـبيرين .. نحن أكبر وأرقى من هذا الهراء .. لابد أن يكون الموت أنيقًا مسرحيًا..

موتك وموت الآخرين متساويان .. إذن فليمت الآخرون ..
على الأقل يمكنك أن تراهم وهم يموتون بدلاً من أن يروك هم ..

* * *

أقدم لك (مايك رودجرز) قائد رجال الأمن .. رجل أمريكي من ميسوري لطيف المعشر له شارب أشقر رفيع.. قصّة (الطاقم) crew cut المميزة والعضلات البارزة وطرف الفانلة الخضراء الزيتية البارز من السترة. معه أستمتع بالكلام بالعامية الأمريكية ذات اللكنة الريفية الممطوطة كأنه خوار بقرة كسول ترعى في مرج، مع استعمال الكثير من الشتائم البذيئة التي تضحكه .

(مايك) كان من المارينز، وقد حارب في فيتنام في أوائل هذا القرن .. لا .. آسف .. حارب في العراق .. أخلط بين العراق وفيتنام كثيرًا فهما بلدان بعيدان قصيان كانت للأمريكان تجارب قاسية فيهما .. قال لي ذات مرة ونحن نتعاطى الفلوجستين:

ـ"كانت غلطتنا في العراق أننا تواجدنا وسط الناس أكثر من اللازم .. سرعان ما صححنا هذا الخطأ وانسحبنا من المدن لنكثف وجودنا في قواعد مغلقة محصنة حول منابع النفط .."

ـ"معلوماتي أنكم هزمتم في العراق .."

ضحك كثيرًا ثم استجمع أنفاسه وقال:

ـ"أنت تتكلم مثل الأوروبيين .. بدأنا الحرب للإطاحة بالطاغية والسيطرة على النفط وتحويل ذلك البلد الغني إلى أشلاء .. حسن .. فعلنا هذا كله حرفيًا فهل يوجد اسم آخر للنصر ؟"

ـ"هل كان النفط بهذه الأهمية ؟"

ـ"كان .. كم من حروب خضناها بسببه .. !.. ثم ظهر البايرول فجأة من سماء صافية ..ذلك الكيميائي الأمريكي الذي توصل له عام 2010 نال جائزة نوبل .. هنا فقط أمكننا أن ننسى الشرق الأوسط وأن نخرج ألسنتنا لشيوخ البترول ونخبرهم برأينا الحقيقي فيهم .. يمكنهم أن يشربوا بترولهم لو أرادوا، لكن الحصول على البايرول له ثمن ..!"

ـ"كان هذا عندما ابتعتم كل الآثار المصرية ؟"

ـ"نعم .. لم يكن لدى المصريين ما يُباع سوى الماضي وقد اشتريناه، ودفعنا ثمنه بالبايرول الذي احتكرته يوتوبيا والمجتمعات المماثلة.. عقد لمدة خمسين سنة يكفل لكم البايرول اللازم للحياة.. كيف تحسب سياراتكم وطائراتكم هذه تتحرك ؟... كل السيارات والطائرات تتحرك بالبايرول منذ عشرة أعوام .. السيارات والمحركات التي تتحرك بالبترول قد انتهى عهدها أو كاد .. لقد صار البترول رخيصًا كالماء، لكن المشكلة هي ندرة الآلات التي تعمل به !"

لم يكن هذا الدرس التاريخي يعنيني في شيء ... لا يهمني كيف كانت الأمور ولا كيف صرنا ما نحن عليه .. ما يعنيني هو ما نحن الآن وما سنكون ...

نحن الآن بصدد الخدمة الأهم التي سيقدمها لي ....

سألته عما إذا كان بوسعي أن أجرب الصيد.. قدمت له أسبابي التي تتلخص في ثلاث نقاط: الملل ثم الملل ثم الملل ..

تغيـر أسـلوبه ووضع حاجز الكلفة الزجاجي الرسمي بيننا وقال في حزم:

ـــ"مسـتحيل .. ولو حاولت لمنعتك .. إن الظروف خطيرة هذه الأيام والمغامرة غير مأمونة"

قلت في ضيق:

ـــ"مـنذ ولدت تقولون إن الظروف خطيرة هذه الأيام.. لا شـيء يحـدث .. هؤلاء الذين خارج الأسوار خراف لا أكثر .. صدقني"

قال وهو يشعل لفافة تبغ:

ـــ"لـو اجـتمعت الخراف الغاضبة على طفل لمزقته تحت أقدامها .."

ـ"هل سمعت من قبل عن خراف غاضبة ؟ .."

ـــ"هم فقدوا القدرة على الغضب، لكنهم كالخراف يهتاجون أحـيانًا بـلا سـبب ولا مبرر واضح .. ونحن نعيش إحدى هذه اللحظات .."

ثم نفث دخان التبغ وقال في ملل:

ـــ"اسمع .. لن أسمح لك ما لم أتلق أمرًا صريحًا من مستر (مراد)"

وكنت اعرف أن مستر (مراد) لن يوافق .. هو لا يرغب في المجازفة بوريثه الوحيد ...

* * *

هكذا جلست ذات ليلة مع باقي الشلة نتعاطى الفلوجستين..

رائحة الليمون الواهنة تملأ المكان ...

نجلـس علـى الأرض .. يمـرر احدهم الأنبوب الزجاجي الشـفاف .. فـيه قطارة صغيرة تملؤها ثم تسكب ثلاث أو أربع قطرات على جلد ساعدك .. ناولها لمن بجوارك ... ثم انتظر ... انتظر حتى ترى الوهج الأخضر يتراقص ...

قطّـر كـل روائـح الكـون .. قطّـر عبق السراخس في المسـتنقعات التي خطت فيها الديناصورات منذ ملايين السنين .. قطّر رائحة عرق كليوباترا ودماء يوليوس قيصر .. قطّر البخور الـذي أشعله الدراويش في ليالي القاهرة الفاطمية .. قطّر النيران التي التهمت القاهرة فيما حكوا لنا، وقطّر عبق كل غانيات باريس راقصـات الكان كان .. قطّر كل روائح حيتان العنبر وكل أنفاس النمور الآسيوية التي تتسلل في ظلام الأحراش .. قطّر الأحراش ذاتها .. قطّر روائح البانسيه والنرجس والليلاك والزنابق .. قطّر كل هذه الروائح معًا ثم ... ثم ماذا ؟.. نسيت ....

الآن أنـت لـم تعـد هنا ... الآن أنت سيد المكان والزمان والكـون ذاته ..الآن كل ما حلمت به موجود هنا معك ... يمكنك أن تشـرب الأفكار في كئوس، وتصب الخمر في دهاليز عقلك .. يمكـنك أن تلتهم الروائح وتراها .. يمكنك أن تشم الضوء .. كل مـا خشيته رحل إلى غير رجعة .. أفكار عبقرية تخطر لك لكنك تنسـاها عندما تتمعن فيها .. عبارات مزاح ظريفة جدًا تتبخر قبل أن تخـرج من فمك .. لكنك تقدر أنهم سمعوها .. لهذا تضحك ..

لهـذا يضحكون ... بعد قليل يأتي الذهول وتشخص عيناك .. هذه هي اللحظة .. إنه (النفق) الذي لن تخرج منه إلا بعد ساعات ...

أشـرت لـــ جرمينال كي تقترب مني .. كانت شاحبة قليلاً بعـد جراحة الكحت والتفريغ التي أجرتها الأسبوع الماضي للمرة الثالـثة للخـلاص من ابن جديد لي، وكانت في حالة انسجام تامة فلابد أنها تغوص وسط النيران الخضر الآن .. قلت لها:

ـ"لقد قررت أن أخوض التجربة .. أريد أن أحضر تذكارًا"

شهقت في جزع وإن لم يبد أنها مذعورة حقًا فأضفت:

ـ"نحن هنا ذقنا كل المتع .. نفس ما مر به نيرون وكاليجولا .. لم يعد من شيء يضفي الإثارة على الحياة مثل أساليب هذين.."

قالت هامسة:

ــ"لكـن هـذا خطر .. أنت تعرف هذا .. هناك يكرهوننا بجنون ولو رأونا بينهم فسوف ....."

ـ"هذا هو ما أريده .. الخطر .. الموت"

بدأ وجهها يتقلص من النشوة لسماع هذه الكلمة .. الخطر .. الإثارة .. كلمات لم تعد في قاموسنا..

لـيس صـيد البشـر غـزيبًا إلى هذا الحد .. أنا قرأت عن الموضـوع كثيرًا .. هل تعلم أن صيد قبائل البوشمن كان نشاطًا رياضـيًا مسـموحًا بـه في القرن الماضي ؟.. وفي عام 1870 انقرض آخر البوشمن من (الكيب) نتيجة لكثرة الصيد .....

بـرغم أن الصـيد غير قانوني في يوتوبيا فإن الكبار كانوا يتجاهلونه ما دمنا لا نكشف عنه علنًا .. وهو شعار يوتوبيا العام:

افعل ما تريد طالما لم تعتد على مال باقي سكان يوتوبيا .. والأهم افعـل مـا تريد لكن أبقه سرًا حتى لا تضع على عاتقنا عبء أن نبدو حازمين، ولا تضع على ضمائرنا عبء أن نتظاهر بالشفقة

لكنـنا نحـن الشباب صرنا نعتبر الصيد نوعًا من اختبارات الرجولة.. (راسم) فعلها .. تسلل ليلاً إلى منطقة من تلك المناطق المخيفة التي يعيشون فيها . أعتقد أن اسمها منذ عشرين عامًا كان (باب الشعرية) أو شيئًا من هذا القبيل .. اختطف واحدًا من هؤلاء الأغـيار العاطلـين وعاد به إلى (يوتوبيا)، وقضى ورفاقه أيامًا ممـتعة مـن ملاحقة هذا المخطوف بالسيارات، ثم قتلوه واحتفظ (راسـم) بـيده المبـتورة بعـد ما قام بتحنيطها .. كل واحد من أصـدقائي قام يومًا ما بهذه الرياضة: رياضة صيد الأغيار، وعاد منها بتذكار ثمين يريه لأمثالي ..

قلت لـــ جرمينال:

ـــ"اللـيلة ننطلق إلى الخارج لنأتي بواحد منهم .. ولسوف تأتين معي .."

كانــت تحبنـي عندما أصدر الأوامر .. هذا يشعرها بالقهر ويدغدغ ماسوشيتها ..

عـندما لا يصدر احدهم أمرًا لك طيلة حياتك .. عندما يدللك الجميع .. عندما تتحقق أتفه أحلامك، فإنك تعشق من يرغمك على شيء .. كنا نلعب تلك اللعبة كثيرًا .. نأمر الفتيات وعلى الفتاة أن تنفذ ما يُقال لها مهما كان .. أي شيء ..

لمعت عيناها حماسة ..

لكني كنت أفكر في خطة مناسبة .. ليس من السهل أن تتسلل لعـالم الفقراء بالخارج.. العسر كل العسر أن تستطيع المرور من بوابة الحراسة المحكمة حول (يوتوبيا).. إن الفقراء وأبناء الأكابر يـبدون متشابهين عندما تراهم في الظلام من طائرة .. طلقات في الظـلام .. جثتـين هامدتـين وحـادث مؤسف .. سوف يتم حل المشـكلة في جلسة من جلسات الكبار وينال أبي عدة ملايين على سبيل التعويض . . اعتقد أن هذا الحل يروق له لكنه لا يروق لي ....هذا كل شيء ......

ماذا أفعل ؟

4

غارقـًا وسـط النيـران الخضر التي صارت علامة مميزة لعقـار (الفلوجستين).. تلك النار الخضراء الباردة التي تسبح فيها وتنتشي ثم تخرج رأسك طالبًا المزيد، قلت لـ جرمينال:

ـــ"هـل تعـرفين أنهـم هـناك لا يستعملون أسماء لارين وجـرمينال.. ؟.. يسـتعملون أسـماء مـثل (باتعـة) و(زكية) و(عطيات).. "

وانفجرت ضحكًا .. لا أعرف السبب بالضبط لكن الأمر راق لي كثيرًا ..

قالت جرمينال وهي تدخن لفافة التبغ المحشوة الخامسة:

ـــ"أعرف هذا .. نراه أحيانًا في التلفزيون في تلك التمثيليات العتيقة"

الحقـيقة أن لنا تلفزيوننا الخاص الذي يعرض فقط ما تريده أنـت .. نظام الكابل وسينما المنزل .. هناك إقبال عال على أفلام الجـنس والعنف والجريمة .. من الغريب أن الأغيار يقبلون على ذات الأفلام في تلفزيوناتهم الرخيصة لكن لأسباب تختلف .. حب العـنف هـنا سـببه الملـل ..حب العنف هناك سببه الفقر والغل المكـبوت .... لمـاذا كـان أباطرة روما و عامة الشعب يحبون

مشاهدة العبيد يمزقون بعضهم ؟ .. لماذا لم يكسب الفقر الفقراء رحمة ؟.. ليت أحد علماء الاجتماع يفسر لي هذا .. على قدر علمي يختلف مزاج الأباطرة تمامًا عن مزاج عامة الشعب، فلماذا يتفق المزاجان في شيء واحد هو القسوة ؟ ..

* * *

كانت العاشرة مساء وقد حان وقت التحرك .. لقد رسمت الخطة بعناية .. في الحادية عشرة تصل السيارة التي تنقل العمال لمناطقهم العشوائية .. نعم هناك عمال في يوتوبيا لأن هناك أعمالاً لا نستطيع القيام بها .. يأتون صباحًا بحافلة خاصة ويعودون بها ليلاً، وهم تحت المراقبة في كل الظروف .. لا يتكلمون ولا يرفعون عيونهم لكنك تشم منهم خليطًا مزعجًا من المقت والخبث والتملق والغضب المكبوت والرائحة الكريهة .. سنوات من القهر جعلتهم أقرب إلى الوحوش ... يومًا بيوم يفقدون جزءًا من آدميتهم حتى صاروا كائنات مريعة بحق ...

انتظرت مع جرمينال في الظلام قرب مكان تجمعهم .. وقعت عيني على رجل يقاربني في الحجم ووقعت عيناها على امرأة تقاربها في الحجم .. كانت الحيلة بسيطة بل هي أقدم حيلة في التاريخ ..

وقفت على بعد خطوات من الرجل أقضم شطيرة من الهامبرجر في تلذذ ..

رأيت عيني الرجل تتسعان وهو يرمق الشطيرة .. تحركت تفاحة آدم مع ابتلاع ريقه ..

قلت له في ترغيب:

ـ"هل تريد قضمة ؟"

نظر لي في حذر كذئب يدعوه أحدهم لقطعة لحم، ولم يرد ..

نظرت حولي ثم قلت همسًا:

ـ"لا أستطيع أن أعطيكها هنا .. تعال خلف هذا الجدار .. لو رآنا أحد الحراس لكانت مشكلة لك"

ولم أترك له فرصة للتفكير .. أسرعت خلف الجدار القريب ووقفت ..

بعد دقيقة ظهر لي كما توقعت ولعابه يسيل وعيناه متصلبتان على الشطيرة:

ـ"هاتها ..!"

ما أقبح منظره !.. كل عالمه تلخص في هذه الشطيرة التي في يدي ولم يعد يعرف أي شيء عما يدور حوله ..

هنا دارت جرمينال بدورها حول الجدار، ثم هوت على رأسه بقطعة قرميد أخفتها في حقيبتها.. لم يكن هذا سهلاً لأنها لم تعتده، وقد اضطرت إلى أن تهوي على رأسه مرتين لأن الضربة الأولى لم تكن حاسمة جازمة .. وعلى الفور تعاوننا في الظلام على نزع ثيابه وارتديتها أنا ..مزية هذه الثياب أن هناك بطاقة هوية في جيب كل منها .. هناك (كاسكيت) على الرأس ... لا بأس .. هذا يخفي معظم معالم الوجه ..

تناولت جرمينال الشطيرة مني وهي ترتجف ثم وقفت قرب المرأة المختارة ..

تكـرر السـيناريو بـذات الخطوات تقريبا ... الاستدراج .. الجدار ... لقد هويت على رأس المرأة بقطعة القرميد، ثم جردتها مـن ثـيابها لتلبسها جرمينال .. أخفينا ثيابنا الأصلية تحت حجر .... المرأة تلف رأسها بإيشارب وهذا من جديد يسهل الأمور ....

يا لها من مغامرة !

الآن فقط اشعر بالأدرينالين يتدفق في عروقي .... النشوة !

نظـرت للسماء ورحت أعب الهواء في جرعات كبيرة ليهدأ قلبي قليلاً فلا يثب من صدري .. توقف !.. بالله عليك توقف !

الآن نصـعد إلى الحافلة وقد تحولنا إلى رجل وامرأة منهم .. فقيـرين كئيبـين .. الثياب كريهة الرائحة خشنة، لكن من قال إن المغامرات مريحة ؟ ..

الحافلة تتحرك ببطء نحو البوابات الخارجية .. نقاط تفتيش.. جـندي أمريكـي يسلط الكشافات على وجوهنا .. لحظة الضعف عـندما يرون ولا ترى .. لكنك تضع ثقتك في قذارة الثياب وفي غطاء الرأس ...

لا أحد يعرفنا في الحافلة لأن هؤلاء القوم لم يعودوا يعرفون مـن يأتون ومن يرحلون .. عندما نرغب في العودة سيكون هذا أسـهل لأنـني سأتصـل بأبي طالبًا أن يرسل لنا من يعيدنا إلى (يوتوبيا)..

حدث هذا مع (شادي) عندما وجد نفسه محاصرًا في (العتبة) عاجـزًا عـن العـودة .. اتصل بأبيه ملك الاتصالات الذي أطلق بعـض السباب، ثم أرسل له طائرة هليوكوبتر خاصة بالمارينز،

وكـان المشهد دراميًا مروعًا عندما راحت الطائرة تحلق عموديًا فـوق (العتـبة) مطلقة رصاصها فوق الرءوس بينما تدلى رجال الإنقاذ بالحبال ليحملوا (شادي) وصيده ...

وارتفعـت الطائـرة فـوق الرءوس كأنها إله وثني من آلهة الإزتك .. واو !.. أية إثارة !

همست جرمينال في أذني:

ـ"رائحة الثياب كريهة .. هذه المرأة لم تكن تستحم .."

أمـرتها بالصمت .. لم يعد يحمينا الآن إلا حسن تصرفنا بعد أن خـرجنا مـن البوابة، وبعد أن تفحص رجال المارينز هوياتنا دون ان ينظـروا لوجوهنا .. إنهم لا يدققون فعلاً فيمن يخرج .. المهم من يدخل .. لكن ما يقومون به هو نوع من تأكيد الحضور لا أكثر .. فلتعرفوا من هو القائد أيها الرعاع ..

* * *

تنسحق الشمس إذ تطوها أقدام الكوكب الأحمر ..

تصرخ الملائكة خوفًا ..

أنت فريستي .. أنت لي ..

فقط عندما تصير جزءًا من خلاياي بعد الافتراس ..

عندها تعرف معنى الأبدية..

من أغاني الأورجازم

* * *

الليل والصمت وإثارة المغامرة .. والصحراء ... أعتقد انني غفوت لبعض الوقت ..

الرائحة الكريهة تدنو من جرمينال .. الرائحة الكريهة والبخر من فم تلفت أسنانه .. امرأة .. تشريحيًا هي كذلك ... أو كما يصف راسم مثيلاتها : هذا رجل مثقوب لا أكثر!

تقرب رأسها من جرمينال كأنها تنين يطل من المقعد الخلفي.. تهمس:

ـ"معك سيجارة يا شابة ؟"

مذعورة تهز جرمينال رأسها أن لا .. يا لسذاجة انعكاساتك!... لو أن كلبًا مسعورًا يتشممك لما تصرفت بهذا الشكل ...

ـ"معك أي شيء يؤكل ؟"

لسبب ما تعتقد هذه المرأة أنها تجلس خلف بوفيه مفتوح ...

تمد جرمينال يدها في الكيس الذي تحمله ولا شعوريًا تناولها بقايا شطيرة الهامبرجر ...

المرأة تقضم من الشطيرة في جشع.. تلوكها في تلذذ شبه جنسي .. تقول إنها لو وجدت سيجارة لصارت الحياة أروع ...

ـ"هل تعملين عند الحمزاوي بك ؟"

لا تعرف جرمينال ما تقوله لها ... تهز رأسها أن نعم .. تقول المرأة إنه وغد ولص وابن كلب .. الرجل صديق أبي لكنني أوافق على كل حرف .. لقد اقتصدت الكثير من الأوصاف ...

ألتفت لها وأقول في خشونة محاولاً التخلص من ثقل لغتي العربية:

ـ"كيف خمنت أنها تعمل عنده ؟"

ـ"لأنها شابة مليحة ولأنها تحمل هذه الشطيرة.."

تمد يدها على شكل قمع وتقبض بأطراف أناملها على ذقن جرمينال .. ثمة لمسة غير مريحة في هذه الحركة تتجاوز السلوك الطبيعي ... لهذا تجفل جرمينال كأنها لامست ثعبانًا .. لابد أن الأظفار الطويلة تخدش جلدها الناعم ....

تردف المرأة:

ـ"يحب الشابات المليحات .. لديه جيش من الجواري .. ابن الزانية يضاجع ثلاث فتيات في فراش واحد أحيانًا .. مع انه تجاوز الستين لكنه ما يأكلونه .. إن الاستاكوزا وذلك الدواء الجديد يأتيانه يوميًا طازجين من فرنسا .."

كنت أعرف اسم الدواء الجديد لأن أبي يستورده .. (ليبيدافرو).. مستحيل أن تنطقه المرأة .. منذ أعوام كانت الفياجرا ثم جاء هذا العقار القادر على إتيان المعجزات .. لهذا لا يتوب رجال يوتوبيا أبدًا .. لا يشيخون ولا يهرمون، وشهوتهم للنساء أبدية كآلهة الإغريق، لكن الكبار لا يجدون فرصتهم إلا مع الأغيار على عكس الشباب .. أنت تظفر بالمرأة عن طريق فتوتك أو مالك أو نفوذك أو سطوتك... يملك الكبار السطوة والنفوذ والمال ولا يملكون الفتوة الطبيعية التي لا تصنعها العقاقير..

تقول المرأة:

ـ"ابن الزانية ينام مع ثلاث فتيات كل يوم، لكنه لم يلمس امرأته منذ عشرة أعوام .. تسألينني كيف أعرف هذا كله .. لا توجد أسرار هنا يا حبيبتي .. ما يدور بين الجدران هو تسليتنا

الوحيدة كما تعلمين .. لا تخجلي .. أعرف أنه فعلها معك .. لو أقسمت لي على المصحف أنه لم يفعل لما صدقت .. لن يصبر الحمزاوي بك أكثر من أسبوع على هذه البشرة الناعمة .."

ثم فرغت من الشطيرة فتجشأت بقوة ومسحت فمها وقالت:

ـ"إنه منحط الذوق أيضًا .. (بيرمرم)... كنت أعمل عنده وأرادني .. أنا قبيحة كالقرد وليس في ما يجذب أي رجل .. لكنه كان ثملاً وقد طلبني، كأن البلغم احتشد في حلقه واحتاج إلى مبصقة .. لا تستطيع المرأة منا أن تمتنع عن الحمزاوي بك .. لا أعرف السبب .. ربما هو الخوف .. ربما هي سطوته .. فكرة لذيذة أن هذا العملاق الثري يريدك أنت .. المهم أنك تقبلين دائمًا.. لا تقولي يا شابة إن من يفعلن هذا مرغمات طيلة الوقت.. لا وحياتك .. للشرف حدود يتهاوى بعدها .. المهم أن الخنزير انفرد بي لحظات، ثم أدار ظهره لي وقد زالت شهوته فأدرك كم أنا منفرة.. هكذا تقيأ وركلني بقدمه ركلات متتالية حتى ألقي بي من فوق السلم مثل تلك الأفلام القديمة .. أفلام يوسف بك وهبي.. راح يسبني سبابًا مقذعًا ... أنا أعرف أصل وفصل هذا الرجل .. هؤلاء لم يأتوا من السماء .. كلهم جاء من أسفل أسفل الطبقات، لكننا وأهلنا كنا أغبياء كالبهائم بينما هم عرفوا كيف يعصرون من الزلط دهنًا ...."

ثم في ظلام العربة نظرت نحوي وقالت :

ـ"وأنت يا الجدع ..؟.. هل تعمل عند الحمزاوي بك كذلك ؟"

قلت لها في حذر وبذات الصوت الخشن:

ـ"مراد بك .."

حان وقت معرفة شيء جديد عن مراد .. أبي ..

أطلقت صهلولة مزقت صمت وظلام العربة وقالت:

ـ"إذن أنت منهم يا سيد الرجالة !!... هيء هيء !.... عرفت هذا على الفور عندما سمعت صوتك الناعم .. ما جمع إلا ووفق !... هي تعمل عند الحمزاوي بك وأنت عند مراد بك . لو حدث العكس لكانت مصيبة .. كان مراد بك سيضربها بالجزمة وكان الحمزاوي بك سيمزقك بالسياط .. هيء هيء !.... هكذا أنتما آخر انسجام .. الأكابر راضون عنكما !"

كانت معلومات عجيبة . وقد بدأت أتذكر سلوك مراد وأجد علامات استفهام لم ألحظها هنا وهناك ..

هل المرأة تطلق إشاعات لا نصيب لها من الصحة، أم إن الأمر كذلك فعلاً ؟..

وماذا يهم ؟.. مراد هو الرجل الذي يصدر لي الأوامر لأرفضها ويعطيني المال .. ما أهمية سلوكه الأخلاقي ؟... أنا لست مسئولاً عن أخلاق أبي .. لن أناسبه على كل حال ....

هنا انخفض صوت المرأة وقالت في الظلام:

ـ"برغم هذا أنجبت منه .. لا يأتي العالم سوى الطفل الذي لا تريدينه وتدعين الله أن تزهق أنفاسه .. ابن حرام فعلاً.. كنت وحدي ساعة الولادة .. قطعت الحبل السري بسكين صدئة وجدتها جوار الفراش ثم رفعت الرضيع من قدميه وتأملته .. كتلة لحم ملوثة بالدم المتخثر.. ابن الحرام يطالب بحقه في الحياة . ابن

الحـــرام يطالب بالغذاء والهواء والدفء والحنان ... لم يكن هناك ما أفعله له .."

هنا فقط علا صوت جرمينال تسأل في قلق:

ـ"ماذا فعلت ؟"

تضـحك المـرأة .. تضحك .. صدرها يترجرج بما فيه .. صدرها يتحشرج .. تسعل .. تبصق ...

ثم تلقي برأسها إلى الخلف ويتصاعد شخيرها...

ظـلال الطـريق تركض على ملامحها القبيحة التي زادتها المرارة وعورة .. طريق حجري آخر محفور على قسماتها ...

تتصاعد النشوة في دمي .. دمي يغلي ...

كلماتهـا ألهـبت خيالي .. كل هذا الألم .. كل هذا الشقاء .. الموت .. القتل ....

مددت يدي واعتصرت يد جرمينال وعضضت لساني من ألم النشوة ... هذا كل ما أستطيع عمله الآن .....

-5-

الآن نحن ندخل أرض الأغيار ......

العـالم الآخر الذي تركناه منذ زمن، يوم توارينا خلف أسوار (يوتوبيا)..

شبرا ..

هكذا يطلقون عليها ...

شبرا التي لم أرها إلا في أفلام السينما .. للاسم رنين غريب قـاس فـي مسـمعي .. لابـد أن له رنين سييرا مادري أو ريو جـراندي فـي مسامع الأمريكيين .. تتوقف الحافلة وسط الزحام ويتـرجل بعض الراكبين، فأشير لـ جرمينال كي تترجل معي .. هنا بداية لا بأس بها ..

أيـن ذهـبت تلك المرأة ؟.. لا أعرف .. هكذا تذوب الوجوه التي لا اسم لها في الظلام والزحام ...

خلـيط عجـيب من الروائح والأصوات والمشاهد .. الرائحة الأولـى والرئيسـة هـي رائحة العرق .. في هذه الرائحة ذابت روائـح غريبة من المأكولات والوحل والفضلات البشرية وربما الدماء ..

هناك عربات تكدست فوقها أطعمة .. خلائط من الأطعمة .. هناك كومة أرز وكومة من مادة عجينية بيضاء أعتقد أنهم يطلقون عليها اسم (كسكسي) وبرتقال ويوسفي ومشروبات ساخنة لا تعرف ما هي .. منذ زمن صار هناك باعة جائلون للخمور، ولكن أية خمر هذه ؟.. زجاجة بحجم الكف ثمنها خمسون جنيه مع كل هذا التضخم !.. لو كان هذا بولاً لكان سعره أكثر من ذلك.. زجاجات عطر قديمة امتلأت بما لا يمكن معرفة كنهه .. أعتقد إن الكحول الأحمر عامل مشترك بين كل هذه السوائل .. قال مراد إن هذا – بيع الخمر في الشارع – كان عملاً لا يمكن تصوره منذ عشرين عامًا، لكن الأخلاق تتآكل في الفقر كما يتآكل المعدن الذي يقطر فوقه الماء .... والأغرب أن الكحول الميثيلي لا يصيب هؤلاء القوم بالعمى كما يفعل في العالم كله.. لو كانت معدتهم من حجر فكبدهم من فولاذ وعصبهم البصري كابل كهرباء ..

الشطائر مشكلة أخرى ... كومة من الشطائر .. شطيرة مليئة بما يزعمون أنه كبدة وثمنها عشرون جنيهًا !... لو كانت هذه أكباد فئران لما أمكن بيعها بهذا السعر ...

الخلاصة التي توصلت لها بعد دقيقة في هذا العالم هو أن هؤلاء القوم يتظاهرون بأنهم أحياء .. يتظاهرون بأنهم يأكلون لحمًا ويتظاهرون بأنهم يشربون خمرًا، وبالطبع يتظاهرون بأنهم ثملوا وأنهم نسوا مشاكلهم ... يتظاهرون بأن لهم الحق في الخطيئة والزلل ..

يتظاهرون بأنهم بشر ...

* * *

الآن فقط افهم لماذا عزلنا أنفسنا في (يوتوبيا).. لم يعد في هذا العالم إلا الفقر وإلا الوجوه الشاحبة التي تطل منها عيون جاحظة جوعى متوحشة .. منذ ثلاثين عامًا كان هؤلاء ينالون بعض الحقوق أما اليوم فهم منسيون تمامًا .. حتى الكهرباء والماء مشكلة فردية لكل منهم .. من استطاع أن يحصل على مولد أو يحفر بئرًا فبها ونعمت، وإلا فعليه أن يتحمل ..

الغريب أنهم تكاثروا بسرعة لا تصدق .. معدل الخصوبة عندنا في يوتوبيا يوشك أن يصير صفرًا، بينما معدلاتهم في ارتفاع متزايد .. ينجب الرجل عشرة أطفال يموت منهم خمسة لأنه لا توجد عناية طبية من أي نوع، لكن الزيادة مستمرة برغم كل شيء .. يبدو أنهم يعتمدون على الأعشاب والوصفات الشعبية اعتمادًا مطلقًا .. أبي يحتكر كل الدواء في السوق وأسعاره خيالية، لكن هناك دائمًا من يشتري .. لغز هذا البلد هو أن هناك من يشتري في كل وقت وبأي سعر، وهو ما يثبت لك أن (ماركس) أحمق على الأرجح عندما تصور أن التوازن سيأتي في لحظة لا يعود فيها الفقراء قادرين على الشراء ..

بعض هؤلاء القوم متدين، لأن الدين هو الأمل الوحيد لهم في حياة أفضل بعد الموت .. لا يمكن أن يتعذب المرء طيلة حياته ثم يموت فيتحول إلى كربون بلا ثواب ولا عقاب .. عندنا في يوتوبيا متدينون كثيرون والطائرات الذاهبة للعمرة لا تتوقف، لكن

السبب – كما أعتقد – هو خوف سادة يوتوبيا من أن يفقدوا كل شيء في لحظة . ان يصحوا ليجدوا أنفسهم وسط هذا الزحام يبتاعون شطائر من كبد الفئران ويشربون الكحول الأحمر .. إن الأمر يحتاج إلى عدد كبير من العمرات والأدعية كي تتجنب هذا المصير الأسود.. الخلاصة انه من العسير اليوم أن تجد متدينا بغرض التدين في حد ذاته ...

* * *

"واصل المعتمرون المصريون عمليات الهروب الجماعي المنظم داخل الأراضي السعودية، وفوجئ العاملون بأحد فنادق مدينة مكة المكرمة ومندوبو الشركة المنظمة للرحلة يوم الخميس الماضي بهروب جميع المعتمرين المقيمين بالفندق، البالغ عددهم 72 معتمرا ليلاً دون أن يشعر بهم أحد أو يشاهدهم أثناء خروج متعلقاتهم الخاصة. قال أسامة العشري وكيل وزارة السياحة: الغريب في الواقعة الثانية أن المعتمرين تركوا جوازاتهم وتذاكر السفر عكس الواقعة الأولي التي قام فيها المعتمرون بالاعتداء علي سائق الأتوبيس ومندوب الشركة المنظمة للرحلة، للحصول علي جوازات السفر.."

موقع مصراوي بتاريخ 26-8-2007

* * *

كنا نمشي وسط الجموع ذاهلين .. علينا ألا نلفت الأنظار لنا، لكني شعرت بضخامة هذه المغامرة التي ألقينا بنفسينا فيها ..

تشد جرمينال يدي في عصبية فأنظر إلى حيث تشير.. هناك قفص خشبي عليه أكوام من جلود الدجاج بشعة المنظر .. المصيبة أن الناس يبتاعون هذه الأشياء .. أقاوم العصارة التي ارتفعت إلى حلقي وأجرها بعيدًا .. سوف تفضحنا بطريقتها الانفعالية الهستيرية هذه .. لو دقق أحدهم في وجهنا لرأى أننا لم نعرف الجوع يومًا ..

البائع ينادينا:

ـــ"تعال يا أخ .. منذ متى لم تطه الخضار على (زفر) ؟.. هذه الجلود تؤدي الغرض تمامًا .."

يرفع سلخة من الجلد ويلوح بها على سبيل الترغيب ....

يبدو أن أرجل الدجاج رائجة كذلك .. الرءوس .. الأجنحة .. لكن أين الدجاج نفسه ؟.. حتى دجاجهم تحول فيما يبدو إلى عظام يكسوها الجلد فقط .. لا عضلات ولا أحشاء ..

طفل ضال أجرب يلتقط شيئًا من على منصة بيع ويفر به فتلاحقه اللعنات وتتطاير الشباشب خلفه ..

أكوام من الثياب المتسخة المستعملة تباع بمائة جنيه للقطعة .. هناك من يقول إن الجنيه كان أعلى سعرًا من الدولار يومًا ما .. لا أصدق هذا وقد صار الدولار يساوي ثلاثين جنيهًا .. هذا نموذج مخيف للتضخم لأن ثمن هذا القميص لن يتجاوز ربع دولار بحال . لسبب كهذا تجد أن أسعار الأشياء تحدد بمئات الجنيهات. وأعتقد أنهم يفضلون المقايضة على كل حال باعتبارها أقرب للحقيقة.

الآن نخرج من منطقة السوق هذه كي نتوغل بين مجموعة من العشش الصفيح أو المصنوعة من البامبو وبقايا الأخشاب .. الأرض مبتلة تغوص فيها قدماك .. مزيج من الوحل وبقايا الغسيل والمجاري الطافحة .. أمشي في حذر لأن التعثر هنا نوع من الانتحار ..

على أبواب العشش تقف نساء قذرات بشعات المنظر يضحكن لي في إغراء .. أعتقد أن أصغرهن تجاوزت الخمسة والثلاثين منذ زمن، لكنها لا تمارس مهنتها بسبب تأخرها في الزواج بل من أجل المال ..

على قدر علمي لم يصدر أي قانون بإباحة البغاء، لكنه صار ظاهرة حقيقية .. صار أقوى من القانون .. أقوى من العرف ...

أعرف أن سن الزواج كان قد صار أربعين عامًا للفتاة ولم يعد هناك سن زواج للرجل، ثم حدث أحد الانقلابات الاقتصادية إياها فصارت شروط الزواج أسهل .. يكفي أن تجد من تقبل بك، وعندها لا داعي للسكن ولا الراتب .. سوف يعنى كل واحد بنفسه والأطفال سوف يجدون رزقهم بشكل ما .. هكذا انخفض سن الزواج من جديد ..

كان هذا كله أقبح من اللازم ..

أبشع من اللازم ..

أكثر واقعية مما يجب ...

عندما يزحف القبح والعطن على كل الإثارة التي يولدها الخيال .. تلتف الغصون الشائكة الطفيلية حول الثمار، وتزحف العقارب بين اللآلئ ...

* * *

كان اسمها كاتي .. أمريكية هي .. أول فتاة عرفتها .. في سن الثالثة عشرة كانت هي الحلم الرومانسي الأبدي.. كانت أكبر من الحياة ومن الواقع، ثم ظفرت بها في تلك الليلة فوق رمال الشاطئ المبتلة.. عندها ماذا عرفت وماذا رأيت وماذا شممت ؟.. هويت من قمم الأوليمب لأزحف في الوحل، وعرفت أن الواقع أقبح مما تتصور ...

يجب أن ننتهي من مهمتنا ونرحل .. فلنختطف من نختطفه ونفر ...

* * *

فتاة تنظر لي وتغمز بعينها غير مبالية بجرمينال التي تمشي جواري ..

هنا خطرت لي فكرة ..

هنا صيد سهل هش بينما الذكور يمكن ان يكونوا خطرين .. هم بالتأكيد خطرون ..

يبدو ان جرمينال فهمتها هي الأخرى فابتعدت عني .. هكذا مشيت وحيدًا إلى حيث الفتيات الواقفات يبحثن عن طالب شهوة، فانتقيت بعيني واحدة منهن .. لم اخترها إلا على أساس قوتها

عـدها عدة مرات كأنما هو يجرد محتويات خزانة الولايات المـتحدة، ثم بصق جانبًا ودس المال في حزامه .. ومن جديد لم يبد أنه يرانا أصلاً...

سألتني الفتاة وهي تفك تنورتها:

ـ"هنا ؟"

ـ"أفضل الابتعاد فأنا خجول .."

أطلقتْ صهلولة عالية رقيعة ومضت معي ...

فقـط بطرف عيني كنت انظر للخلف فأرى جرمينال تحاول اللحـاق بنا خائفة متعثرة .. وسط هذه الخرائب والفئران لابد أنها تعيش أسوأ لحظات حياتها ....

وأخيرًا صرنا وحدنا تقريبًا . فتحت الفتاة فمها لتتكلم:

ـ"هلم انته الآ ...."

لكنـي فـي اللحظة التالية انهلت على جذور عنقها بضربة سيف يد تعلمتها عندما زرت (كمبوديا)، فسقطت على الأرض بلا حراك .. فقط عيناها شاخصتان ...

وفـي اللحظـة التالية سمعت جرمينال تناديني .. بمعجزة ما اخترقت الخرائب بكل المتعاطين المتجمعين فيها ..

قلت لها لاهثًا:

ـــ "انتهى الأمر .. سأطلب أمي كي ترسل من يخرجنا من هنا .."

ومـددت يـدي فـي جيبـي لأخرج المدية التي سأنجز بها مهمتي...

فـي هذه اللحظة سمعنا حركة .. رفعت عيني فرأيت عشرة من هؤلاء الشباب يحيطون بنا .. وسمعت من يقول:

ـ"إنهما ليسا منا !... هذان من يوتوبيا !!"

[illegible]

[illegible]

[illegible]

سألتني الفتاة وهي تلف ذراعها:

ـ هنا ؟

ـ أفضل الابتعاد قليلاً حولي ..

أطلقت صيحة عالية رقيقة ومضت معي ..

فقط بطرف عيني لمحت [illegible] فأرى جرميتال تحاول اللحاق بنا [illegible] وسط هذه الخرائب والقرائن لابد أنها تعرف أسوأ لحظات حياتها ..

وأخيراً اخترنا ركناً قريباً .. فتحت الفتاة فمها [illegible]

ـ "ماذا الآن ..."

لكني في اللحظة التالية [illegible] على خدور عنقها [illegible] بعد تعلمتها [illegible] فسقطت على الأرض بلا حراك .. فقط عيناها شاخصتان ..

وفي اللحظة التالية [illegible] جرميتال تعانقني .. [illegible] الخرائب بكل المتعاطين المتجمعين فيها ..

قلت لها لاهثاً:

ـ "انتهى الأمر .. سأطلب أمي كي ترسل من يخرجنا من هنا .."

[illegible]

الجزء الثاني

الفريسة

-1-

قرنيتي الحبيبة .. وحلم ما بعد الجنس ...

أعــرف أنني سأموت بعد يومين فلا تقل العكس .. لا تكرر هذا الهراء وإلا طعنتك بمطواتي. دعني أحلم مرة أخيرة .. أنا لم أفعل هذا منذ زمن .. قرنيتي الحبيبة .. وما بعد الجنس ...

منذ متى ضاع كل شيء ؟

لا أعرف ..

يشــبه الأمر مراقبتك للشمس ساعة الغروب .. لا تعرف أبدًا متى انتهى النهار وبدأ الليل .. متى بهت الضوء وبردت الأشياء، ومتــى تسرب دم الشفق الأحمر يلوث الأفق، ولا متى ساد اللون الأرجواني كل شيء .. لا يمكنك أن تمسك لحظة بعينها .... ليس بوسعك أن تقول: هنا كان النهار وهنا جاء الليل ...

فقــط أذكر أن الأمور كانت تسوء بلا انقطاع.. وفي كل مرة كان الفارق بين الوضع أمس واليوم طفيفًا، لذا يغمض المرء عينه كــل لــيلة وهو يغمغم: أهي عيشة ..ما زالت الحياة ممكنة .. ما زال بوسعك أن تجد الطعام والمأوى وبعض العلاج .. إذن فليكن غد ..

ثـــم تصحو ذات يوم لتدرك أن الحياة مستحيلة، وأنك عاجز عن الظفر بقوت غد أو مأواه ..
متى حدث هذا ؟.. تسأل نفسك فلا تظفر بإجابة ....

* * *

الموعد كان منتصف الليل ..
أشق طريقي بين العشش العتيقة التي كانت فيما مضى تشكل شـــارع (شبرا). نعم .. أذكر أنه كان هنا شارع واسع تمشي فيه السيارات على الجانبين .. تراهنت مع (زينهم) على أنه كانت هنا سينما يومًا ما. ابن الكلب لا يعرف معنى سينما أصلاً لكنه يجادل بالباطل.
بصــــراحة أنا أيضًا لا أذكر إن كانت هنا سينما أم لا .. لكني علـــى الأقل أذكر ما هي السينما .. كانت هناك صور عملاقة جدا تتحرك، وكان هناك ظلام يمكنك فيه أن تدخن الحشيش بسهولة .. يبدو أنه كانت لي تجربة أو اثنتان فيها لكني لا أذكر مع من ..
الموعد كان منتصف الليل ..
بـــاب المتـــرو المغلق .. أنا أعرف كيف أفتحه .. فقط أدس رأس المسمار في القفل الحكومي الصدئ وأدق بحجر فينفتح القفل فالجنزير . هذا المدخل يعرفه كل أولاد الليل مثلي. لكننا نحرص علـــى أن نغلقـــه عند الخروج. لا نريد أن يتمكن أحد من دخول عالمنا السري تحت الأرض..
أزيـــح الستار الحديد وأنسل إلى الداخل .. الممرات المظلمة الخالية عطنة الرائحة ..

أشعل مشعلاً وأرفع يدي لتتسع دائرة النور ..
هناك تقف عربات المترو الخربة كوحوش هامدة.. لقد انتهى أمـــرها منذ كف السادة عن استعمالها ورحلوا إلى مستعمراتهم .. يوتوبيا وسواها ... لم تعد هناك صيانة .. لم تعد هناك كهرباء .. في النهاية وقفت هذه الوحوش الصدئة النائمة للأبد، ومن الواضح أنهـــا لـــن تتحرك ثانية .. بعض الشباب لا يعرفون أنها موجودة أصلاً..
في زمن ما كانت هذه العربات فائقة الشهرة، وكان هذا أعظم إنجـــاز للحكـــومة منذ دهور. لا أعرف متى تداعى وانهار. لكنه تزامن مع ميلاد يوتوبيا على الأرجح. أعتقد أن الناس نعموا بهذا المشروع خمسين عامًا أو أقل .. بعده صار مأوى للكلاب الضالة ثم لم تعد هناك كلاب ضالة .
لم يعد سوانا ..
قرنيتي الحبيبة .. وحلم ما بعد الجنس ... أواه !!.....
هـــناك كانوا يقفون .. (عبد الظاهر) و(متولي) و(محروس) و(مينا) ...
عرفوني من مشيتي العرجاء ومن قامتي فهتف (مينا):
ـ"سلام يا (جابر).. والمسيح الحي انتظرناك كثيرًا "
لا يمكـــنك أن تعرف دين أي واحد هنا ما لم ينطق بقسم من نـــوع (المســـيح الحـــي) أو يصل على رسول الله، فحتى الأسماء صـــارت عادية محايدة لا تدل على شيء .. (فريد) .. (عوض).. (عمـــاد).. الخ. لو كانت هناك مزية وحيدة لمجتمعنا هذا فهي أنه

لا يعرف شيئًا اسمه التفرقة الدينية. لقد تحققت جنة المساواة الطائفية ولكن بشكل عجيب لم يدر بذهن أكثر الفلاسفة جموحًا .. منذ ساوى الفقر بين الجميع، لم يعد أحد يعرف إن كنت مسلمًا أو مسيحيًا إلا عندما تعلن أنك ذاهب لعمرة، أو ينكشف ساعدك ليظهر وشم الصليب .. لولا انتهاء عصر البترول لاشتعل الوضع الذي كان مرشحًا للانفجار في أوائل القرن الواحد والعشرين ...

هتف (عبد الظاهر) في وجهي:

ـ"هل معك (فلوك) ؟"

أطلقت صوتًا نابيًا من خياشيمي .. (فلوجستين) معي أنا ؟.. هؤلاء البلهاء لا يستطيعون نطق اللفظة كاملة لذا قرروا أنه (فلوك)...

ـ"من أين يا بن الـ ...؟"

ثم دسست يدي في جيبي وأخرجت سيجارة ملغومة وقذفتها له:

ـ"هذه معي .."

أطلق صوتًا نابيًا آخر وهتف:

ـ"جميل .. عدنا لأيام الروضة .. "

لكنه أشعلها برغم كل شيء وأطلق سحابة كثيفة من الدخان.. لم يعد شيء بقادر على التأثير في هذا الجهاز العصبي، فلا شك أنه بحاجة إلى طن من الحشيش كي يشعر بانبساط وقتي. الفلوجستين .. الفلوجستين هو سيد المخدرات لكن من أين لنا به؟.

هناك في يوتوبيا تسيل انهار الفلوجستين .. إنهم يأكلونه ويشربونه.. إنهم يعرقونه .. إنه طمث النساء وبول الرجال .. صنابير الماء لا ينزل منها ماء بل فلوجستين .. يغسلون أقدامهم في الفلوجستين .. يسقون كلابهم فلوجستين.. لو حدثت ثورة يومًا ما فلن تكون من أجل المساواة، بل من أجل مطالبة المحرومين بحقهم الطبيعي في الفلوجستين..

(عبد الظاهر) بلطجي لكنه جدع .. أعترف أنني أحبه وأثق فيه. خاصة عندما لا يساوره ذلك الهاجس المرضي ويروح يحكي لنا خطته بصدد البايرول ويوتوبيا .. أنا أعتبر هذه الخواطر نوعًا من الاستمناء الفكري. هو لم يفعل شيئًا .. لن يفعل شيئًا على الإطلاق.. لذا يقضي الوقت في وصف المتع الجهنمية التي تنتظره لو نفذ خطة البايرول تلك ..

قال (متولي) وهو يسلك أذنه بإصبعه:

ـ"سليمان ينتظرنا هناك .. عند فتحة (سانت تريز).."

كانت اللافتات الصدئة المتسخة لا تقول أي شيء على الإطلاق .. لكننا صرنا قادرين على تحديد اتجاهاتنا في ضوء اللهب المتراقص.

هكذا وثبنا إلى عربات المترو التي لم يعد فيها مقعد واحد ولا لوح زجاج واحد، ومنها وثبنا إلى القضيب ثم إلى الجهة الأخرى، ورحنا نركض في الظلام قاصدين تلك الفتحة ..

هنا رأيناهم ..

كانوا خمسة يقفون هناك وقد أدركنا على الفور أنهم (بيومي) وشلته.

وسـطهم علـى ضـوء المشاعل رأينا واحدًا ممزق الثياب مذعورًا والدم يسيل من أنفه ..

لقد قبضوا على سليمان ..

* * *

يمكن أن يتحمل المرء الحياة بلا مأوى ..

بلا مأكل ..

بلا مشرب (ربما بضعة أيام)..

بلا ثياب ..

بلا سقف ..

بلا حبيبة ..

بلا كرامة ..

بلا أسرة (باستثناء صفية)..

بلا ثلاجة..

بلا جهاز هاتف ..

بلا جهاز تلفزيون ..

بلا ربطة عنق ..

بلا أصدقاء ..

بلا حذاء ..

بلا سراويل ..

بلا فلوجستين ..

بلا واق ذكري ..

بلا أقراص للصداع...

بلا مؤشر ليزر ..

لكنه لا يتحمل الحياة بلا أحلام ..

منذ طفولتي لم أجرب العيش بلا أحلام ..

أن تنتظـر شيئًا .. أن تحرم من شيء .. أن تغلق عينيك ليلاً وأنت تأمل في شيء .. أن تتلقى وعدًا بشيء ..

فقـط في سن العشرين أدركت الحقيقة القاسية، وهي أن علي أن أحيا بلا أحلام ..

لـن يكون هناك شيء يا صاحبي .. لا اليوم ولا غدًا ولا بعد يوم ..

حـياتك حاضـر طويييييييـيـل (مـاذا تنتظـر ؟) يييييـــــــــــــ (لا شيء) ــــــــــــــييل قاس ..

فقـط فـي هـذه اللحظات أدركت أن علي أن أخوض حربًا مريرة مع ذلك الطفل المزعج في داخلي .. الطفل المزعج يصرخ ويركل الأرض بقدميه: "لا أحلام ؟.. كيف ؟؟"

ثم ينطلق في سباب بذيء ويضربني ويعضني، لكني في كل لـيلة أصفعه وآمره أن يخرس .. لا أحلام يا ابن الـ (...)... لن يكـون هناك غد .. الغد أخذوه منك وعليك أن تقبل كما قبلت ألا يكون عندك مأكل أو مشرب أو ثياب أو سقف أو حبيبة أو كرامة أو أسرة أو ثلاجة أو هاتف أو تلفزيون أو ربطة عنق أو أصدقاء

أو حـــذاء أو ســـراويل أو فلوجســـتين أو واق ذكري أو أقراص للصداع أو مؤشر ليزر ..

يطلق المزيد من السباب البذيء ثم ينام ...

حاضـــر طويييييييييي ـــــــ (ماذا تنتظر ؟) ـــــ ييييي ــــــــ (لا شيء) ـــــــــــ بيل قاس ..

* * * *

لـــم أكـــن الأشجع ولا الأقوى .. لذا تقدم (عبد الظاهر) منهم وهو يلوح بالسنجة التي يحملها ، وقال بصوت أراد أن يكون قويًا فخرج متوترًا متحشرجًا:

ـــ"مـــاذا تريد يا (بيومي) ؟.. منذ زمن نحن كقطارين على قضيبين .. يتحركان عكس بعضهما لكنهما لا يلتقيان .."

أطلق بيومي سبة، وانفجر ضاحكًا .. بصق وقال:

ـــ"مـــن لكـــم بمعرفة القطارات يا أولاد العاهرات ؟.. أنا أذكرها جيدًا وركبتها أكثر من مرة .. كانت القطارات لا تلتقي إلا عـــندما تقـــع حادثـــة، عندها كانت الجثث الممزقة والدماء تغطي الحقول !"

كان كلامه واضحًا .. لقد تجاوز حد التلميح ..

مـــد يده في الجوال الذي يحمله (سليمان) وأخرج جثة الكلب العملاق .. رفعه من عنقه برغم وزنه الثقيل، ورأيت العضلة ذات الرأسين تتكور مبللة بالعرق لامعة في ضوء اللهب:

ـــ"هذه المكالمة لنا .. هذا يلزمنا .."

لم نكن لنتحمل هذا أيضًا .. المعدة خاوية والجائع مجنون .. بعـــد كل هذا الجهد يضيع منا الكلب الذي ظللنا ننصب له الكمائن ثلاثة أيام ؟..

متـــى يمكـــن أن تجـــد كلبًا آخر ؟.. لم تعد هناك كلاب في الشوارع على الإطلاق .. لا قطط .. لا فئران .. نشوة الشواء في الخـــرائب والمـــزاح مع أنفاس الحشيش .. و(صفية) التي لم تذق أكلة محترمة منذ شهر ؟... كل هذا كان ينتظرنا لو لم نر ابن الـــ (.....) هذا ..

هـــنا فقـــد (عبد الظاهر) أعصابه وصرخ بصوت ارتجت له ممرات المترو:

ـــــ"ســـترون يـــا أولاد الـــ (...) !! .. هذا الكلب لنا .. لنا وحدنا وسنموت على جثته !"

وعلى الفور وثبنا جميعًا لنلتحم بهؤلاء الأوغاد ...

Books-sea.com

-2-

سأموت خلال يومين أو ثلاثة ..

تسـألني كـيف عرفت هذا ؟.. أقول لك إنه لا فرصة للنجاة أمامـي .. أنـا ولـدت خاسرًا ولسوف يظفر بي الفتى القادم من (يوتوبيا) لا محالة ..

لهـذا أتذكر .. لهذا أمرر مذاق حياتي على لساني كما يمرر المرء مذاق النبيذ المر بعد ما فرغت الزجاجة ..

أتذكـر أشـياء وأماكن ووجوهًا وكلمات وأبيات شعر وكتبًا وروائح، لكني في أغلب الأحوال أتذكر نساء ...

اسمها كان (عزة)...

لماذا أتذكرها الآن ؟

(عزة) كانت تبيع الخبز على ناصية حارتنا ..

(عـزة) تضـحك .. (عزة) تهتز .. (عزة) تقطب .. (عزة) تغمـز .. (عـزة) تنتشـي .. (عزة) تتشاجر .. (عزة) تتلوى .. (عزة) تهمس ... (عزة) تبتسم .. (عزة) تفكر ..

(عزة) تبيع الخبز ..

قالت لي مرارًا:

ــ"أنت تقرأ كثيرًا .. أنت مجنون .."

قلـت لها إن القراءة بالنسبة لي نوع رخيص من المخدرات. لا أفعل بها شيئًا سوى الغياب عن الوعي. في الماضي – تصور هذا – كانوا يقرءون من أجل اكتساب الوعي. حكيت لها عن كثير عزة فقالت لي:

ــ"اتنيل "

فتنيلت ..

قالـت لي إنه مفترس .. إنه يغار عليها .. إنه يحمل مطواة قـرن غـزال يمكنه أن يرشقها في زجاج نظارتي. (السرجاني) الضـخم يشـتهيها .. يعـتقد أنها له. بعد أن ينالها قد يضمها إلى سمية ..

وجاء اليوم المحتوم الذي انتظرناه في رعب .. أنا أردت أن أعرف .. هي أرادت أن تعرف .. السرجاني أراد أن يعرف ..

لا أذكـر سوى أنه كان ينفخ من منخريه كالثور .. لا أذكر سوى أنه كان يمزق لحم ساعديه وصدره بنصل مطواته بلا سبب واضح، فقط ليريني أنه لا يخاف شيئًا ...

لا أذكـر سـوى الطعنة .. شق يبدأ من الجفن العلوي ويمر بالقرنية وينتقل إلى الجفن السفلى ..

لقـد فقـدت قرنيتي .. البلهاء يقولون (عينه باظت) لأنهم لا يعرفون ما هي القرنية .. أنا أعرف أشياء كثيرة .. حتى والنصل يمزق عيني كنت أدرك الفارق التشريحي بين القرنية والعين كلها.

بـرغم هذا أعترف أنني جرحته كثيراً .. لو حسبت المهزوم بكمية الدم التي سالت منه فهو قد هزم. صحيح أنه من جرح نفسه بنفسـه .. لكن العبرة بمن ينزف أكثر .. حمله رفاقه ليبعدوه وهو يخور كالثيران متوعدًا إياي بالمزيد .. لابد أن الخمر لعبت برأسه جدًا ..

قلت لها وهي تضمد عيني النازفة إنني أشتهي قبلة ..

قالت لي:

ــ"أتنيل .. عينك باظت"

ضـحكت بـرغم الألم .. برغم الدم الذي سال ليملأ فمي في وضعي الراقد وقلت:

ــ"ليست عيني .. قرنيتي فقط"

* * *

اسمها كان (نجاة)..

لها عين يمنى تالفة مثلي ..

كانت بلا عمل سوى أن تسرق أشياء من الباعة .

زوجهـا تركها لأنه حاول مرارًا أن يقنعها بأن (تفتح مخها) لكـنها رفضـت في إباء .. هناك كنز في الدار يمكن أن يكفل له حياة طيبة، لكن الكنز يرفض أن يباع ..

جاءهـا ذات لـيلة ثملاً ومعه ثلاثة من رفاقه، ثم تركهم في العشـة معهـا وخـرج بلا سبب واضح .. لكنها خرجت وراءه وأغلقت العشة عليهم من الخارج وملأت الحارة صراخا وعويلاً, وسـرعان مـا اكتشـف كـل واحد من الجيران في نفسه مدافعًا محمومًا عن الأخلاق.. هناك في العشة لحم بشري ثمل عاجز عن المقاومـة ينتظـر مـن يصـفعه ويركله ويبصق عليه. وقد فعل الجيران هذا في حماس ..

لـم يجرؤ زوجها على العودة لأنه ضعيف الجسد والشخصية أمامها ..

(نجـاة) تضـحك .. (نجاة) تهتز .. (نجاة) تقطب .. (نجاة) تغمـز .. (نجـاة) تتمشـي .. (نجاة) تتشاجر .. (نجاة) تتلوى .. (نجاة) تهمس ... (نجاة) تبتسم .. (نجاة) تفكر ..

(نجاة) تسرق الأسماك من الباعة وتكون تجارتها الخاصة .. كان هذا قبل أن يسرق سمكها وغد من (البدرشين)..

(نجاة) تقول لي:

ــ"تزوجني يا جابر .. سأكون خادمة تحت قدميك"

قلـت لها إن الناس يجب ألا تتزوج إلا لكي تأتي للعالم بمن هو أفضل .. طفل أجمل منك .. أغنى منك .. أقوى منك ..

مـا جـدوى أن يتـزوج الشقاء من التعاسة ؟.. الهباب من الطين؟..

ما الجديد الذي سنقدمه للعالم سوى المزيد من البؤس ؟

قلت لها إنهم في يوتوبيا يستحقون الزواج والإنجاب .. قالت إنهم فاسدون وأولاد كلب .. قلت لها إنهم هم من يحدد معنى الفاسدين ومن هم أولاد الكلب حقًا، لهذا من حقهم أن يتزوجوا وينجبوا ..

"كل من يملك عشاء ما بعد عامين من الآن يستحق أن يتزوج وينجب"

اسمها كان (نجاة)..

لها عين يمنى تالفة مثلي ..

هل وجدت معها متعة ما ؟.. لا أذكر .. فقط أعرف أنني أحتاج لها الآن ..

* * *

اسمها كان (عواطف)...

لماذا أتذكرها الآن ؟

عواطف كانت ممرضة قبل أن تتوقف رواتبهن وقبل أن يجدن أنه لا جدوى من العمل .. أكثرهن عملن كطبيبات يعالجن مقابل مال زهيد. ما كن يعالجن به هو خليط من الأعشاب والعسل والوصفات البلدية، وأحيانًا بعض الأدوية التي يروجها سكان يوتوبيا ولا يستعملونها أبدًا.. أحيانًا بعض الأدوية المهمة فعلاً ، تلك التي كان العاملون هناك يسرقونها لنا وتباع بثمن باهظ ، ومنها المضادات الحيوية والمسكنات.

(عواطف) تضحك .. (عواطف) تهتز .. (عواطف) تقطب.. (عواطف) تغمز .. (عواطف) تنتشي .. (عواطف) تتشاجر ..

(عواطف) تتلوى .. (عواطف) تهمس ... (عواطف) تبتسم .. (عواطف) تفكر ..

(عواطف) تعالج عيني ..

(عواطف) تقول إنها تحب الرجل الذي يتشاجر ويفقد عينه من أجل امرأة ..

(عواطف) تقول إن من قابلتهم من رجال كانوا على استعداد للتضحية بها مقابل عقب سيجارة ..

(عواطف) تقول إنني رجلها ..

(عواطف) تقول إنني أذكرها بطبيب أحبته يومًا، ثم أدمن المورفين ومات بجرعة زائدة ..

(عواطف) سمراء جميلة .. كانت جميلة .. الجوهرة التي اعتنت الطبيعة بصقلها وتجميلها لتلبسها الأميرات، فسقطت في الوحل .. التقطها كلب أجرب بين أنيابه وراح يجري .. ويجري..

وأنا أطارد الكلب ليس من أجل الجوهرة ..

بل لأنني جائع .. والله العظيم جائع ..

-3-

الضربات تتطاير في كل صوب ..

ضــربات .. طعــنات .. ركــلات .. بصــقات .. شتائم .. قبضات .. نصال .. عرق ..

أنــا ضعيف جدًا .. أنا لا أملك ما يمكنني من مواجهة موقف كهذا .. فقط أتظاهر بأنني أقاتل على طريقة (كداب الزفة)، لكني أعــرف حــدودي وأعرف أنني لهذا السبب بقيت حيًا .. يجب أن تلتصق بالعصابات .. تلتصق بالأقوياء الذين يأخذون ما يريدون.. يجب أن تكسب مودتهم وتقنعهم أنك ضروري لهم، لكن لا تلتصق بهم أكثر من اللازم فتفقد حياتك عندما يفقدونها ..

أنــا جربت حظي مع البطش وفقدت قرنيتي. هذا يكفي المرء في حياة واحدة. لن تكون خسارتي قرنية وأنفًا أو قرنية وذراعًا .

ضــربات .. طعــنات .. ركــلات .. بصــقات .. شتائم .. قبضات .. نصال .. عرق ..

عندما أدرك أن كفتنا هي السفلى أقرر الفرار ..

أســتدير وأنسى كل شيء عن لحم الكلب المشوي .. أثب إلى قضيب المترو وأركض في الظلام.

لو حالفني الحظ لوجدت الممر الذي يقودني إلى الخارج.

هناك من يصرخ من خلفي:

ـ"انتظر !"

لا أعــرف هل هو من رفاقي يلومني على نذالتي، أم هو من أعدائــي يريد أن يلحق بي لينتزع عنقي. سيان .. فقط أنا أركض ولا أنظر إلى الخلف ..

في يوتوبيا لا يأكلون الكلاب .. يربونها للتدليل وللحراسة ..

كنا مثلهم يومًا ما، ثم تعلمنا انها مصدر رخيص للبروتين. لو حــدثت الثورة يومًا ما فلسوف نبدأ بالتهام كلابهم المدللة السمينة كلها.

هذا هو الممر .. أركض فيه وأتعثر. لقد فقدت المشعل لكني احفظ طريقي على كل حال.

هناك ملصق قديم لأحد أجهزة المحمول .. عرض خاص من شــركة ما .. كان هذا عندما كانت هناك شركات محمول قبل أن يســتولي عليها جميعًا (منصور بيه) ملك الاتصالات، وبالطبع لم يعد أحد يهتم بأن نستعمل هذه الأجهزة على الإطلاق، لكن الشبكة تغطي هذا الجزء من مصر على كل حال..

هناك ملصق آخر عن السمن ..

هــناك ملصق عليه فتاة حسناء شبه عارية قام احدهم بتشويه ملامحها وتسويدها .. يومًا ما فعل أحدهم هذا وزعم أنه فعله من أجــل الحفــاظ علــى الأخلاق. الحقيقة أنه اغتصاب رمزي لتلك الحســناء، لكــن الحرمان الجنسي لم يعد من مشاكلنا اليوم (و هذا غــريب) .. مع كل هذا الفقر انهار حاجز الأخلاق وصار الجنس

أسهل شيء يمكنك الحصول عليه.. الجنس مقابل أجر تافه فإن لم يكن فهو الاغتصاب ..

لكنني برغم هذا ظللت أصبو لشيء آخر .. أصبو لما بعد الجنس .. الشيء الذي يجعلك بعد إفراغ شهوتك تظل جالسًا جوارها تصغي وربما تربت على خدها الأسيل بأناملك .

عاطفة غامضة لن أطلق عليها اسم الحب . لست بهذه السذاجة والغنائية .. سوف أطلق عليها اسم (ما بعد الجنس)...

(عزة) .. (عواطف) .. (نجاة)..

أفتح الباب الحديدي . أخرج إلى الهواء الطلق والظلام ..

أغلق القفل بعناية كي لا يتسلل واحد آخر. هؤلاء في أنفاق المترو يمكنهم العناية بأنفسهم ويعرفون كيف يخرجون ..

لقد نجوت بأعجوبة ..

لكني جائع ..

فيما بعد عندما التقط أنفاسي سوف أعرف إن كان من حسن حظي أن بقيت حيًا جائعًا، أم كان من الأفضل لي أن أموت في نفق المترو المظلم.

لا اعرف .. لا أقدر على الموت .. انا بكتريا مرغمة على الحياة مهما حدث لها ..

على الأقل هناك (صفية). أختي ...

ثمة شيء واحد في حياتي ظل نظيفًا أو نجحت في أن أجعله كذلك.. رأيت ذات مرة في فيلم غربي في تلفزيون القهوة فارسًا

نبيلاً يمشي مع امرأة فيرى بركة وحل .. عندها نزع معطفه وألقاه على الأرض لتمشي عليه فلا يتسخ حذاؤها ..

مع (صفية) لم ألعب دور الفارس .. لعبت دور المعطف ذاته..

لهذا أنا حي .. لن أموت وأترك (صفية) تسرق أو تهز ردفيها بائعة السلعة الوحيدة التي تملكها .. لن أموت وأتركها للنساء يخمشن وجهها ويطلقن عليها نعوتًا قذرة .. لن أموت وأتركها تجوع ..

لن أموت وأتركها تحيا بلا حياة ..

* * *

كشف المرصد الصحفي بملتقى الحوار للتنمية وحقوق الإنسان عن ارتكاب (172) جريمة عنف ضد النساء وذلك خلال الفترة من 30 يونيو حتى 25 ديسمبر 2005 ، وقد كشفت الدراسة من واقع ما تم رصده الآتي :-

- 150 جريمة قتل بينهم 6 جرائم اقترنت بالذبح، 3 جرائم اقترنت بحرق الجثث، 3 جرائم اقترنت بتمزيق الجثث وعدد 2 جريمة أجبرت الضحايا على شرب السم، وجريمة واحدة تم قتلها بإغراقها في مياه الترعة. وأخيرا عدد 4 جرائم قتل غير متعمد لقيام الزوج بالعبث في سلاحه الناري . - 13 جريمة شروع في قتل و9 جرائم اعتداءات بالضرب.

جاء الدافع لارتكاب تلك الجرائم : بسبب الشرف: هروب الزوجة - خيانة الزوجة - الشك في سلوكها - الغيرة (70)

جـــريمة، تردى الأوضاع الاقتصادية: مصروف المنزل – ياميش رمضان – نقل ملكية سيارة – النزاع على ميراث (39) جريمة ، خلافــات أســرية : رفض خطبة أو زواج – التأخر في إعداد الطعــام – خلافات بين الزوجة وأسرة الزوج – إهانة الزوج او صــفعه – إنجاب إناث – مطالبة الزوج بالطلاق(44) جريمة ، وكــان العنف بسبب الدجل والشعوذة: إخراج جان وعفاريت من جســد الــزوجة (3)جرائم ،وجاء عدد الجرائم بسبب الفشل في محاولـــة اغتصــاب الضحية (6) جرائم ، فيما كان القتل بسبب الاســتيلاء علـــى أموال الضحية (7) جرائم ، وأخيرا قتل غير مــتعمد: عــبث بسلاح ناري، دفع الضحية أثناء المشاجرة (9) جرائم .

مــن حيث القائم بالجريمة: ارتكب الأزواج عدد (146) والأشقاء والأقارب (17) وعدد (9) جرائم لم يكن هناك صلة بين الضحية والجاني .

تــوزع الــنطاق الجغرافـــي لمكان وقوع الجرائم كالآتى :- محافظة القاهرة شهدت عدد (48) جريمة ، الجيزة (23) ، قنا (11) ، سوهاج (16) ،المنيا (5) ، بور سعيد (4) ،السويس (5) ،كفر الشيخ (3) ،الغربية (6) ،البحيرة (3) ، دمياط (3) المنوفية (9) ،القليوبية (8) ،الإسكندرية (13)، الإسماعيلية (5)، المنــيا (4) جــرائم ، فــيما لم يذكر محررو الخبر مكان وقوع (6) جرائم .

تمــثلت الأداة المســتخدمة فــي ارتكاب تلك الجرائم في :- أســلحة بيضاء (سكين – ساطور– مطواة)أسلحة نارية (مسدس – بندقـــية) ماء نار ،فئوس – شاكوش – شوم – عصى – حبال – قطـــع خشب ،شريط لاصق – كي بالنار – مفتاح إنجليزى – ماسورة حديدية ، القتل بالخنق .

علـــى أســـاس المستوى التعليمي: كان هناك 11 من حملة المــؤهلات العليا، (3 ا) طالبًا بالثانوى والجامعة ،غير متعلمين 32 فيما كان هناك (116) جريمة لم تتوصل الدراسة للمستوى التعليمي لمرتكبيها لإغفال محرر الخبر ذكره .

* * *

الأرقام لا تكذب ....

من بين كل مائة جريمة عنف ضد النساء تقتل 85 امرأة..

من بين كل مائة امرأة قتيلة هناك أربع يذبحن كالشياه واثنتان تحرقان ..

قرنيتي الحبيبة .. وحلم ما بعد الجنس ...

أنا رأيت كل شيء يتهدم ..

أنذرتهم ألف مرة، لكنهم لم يصدقوا أو صدقوا ولم يبالوا ..

أحيانًا أشعر أن المصريين شعب يستحق ما يحدث له. شعب خنوع فاقد الهمة ينحني لأول سوط يفرقع في الهواء.

في الماضي عندما كنت أتفلسف قلت لأحد أصدقائي:

ـــــ"لقد جمع (بلفور) اليهود في وطن واحد وعدهم به، وبهذا أراح العالم منهم .."

سألني في غباء عمن هو (بلفور) فقلت:

ـــ"هـــو رجل جمع اليهود في وطن واحد وعدهم به، وبهذا أراح العالم منهم .."

بدت عليه الدهشة وهتف:

ــ"يا سلام .. !... رجل جمع اليهود في وطن واحد ؟"

واصلت كلامي:

ـــ"اعتقادي أن هناك وعدًا آخر .. ثمة شخص جمع الأوغاد والخاملـين والأفاقـين وفاقدي الهمة من أرجاء الأرض في وطن قومـي واحد هو مصر .. لهذا لا تجد في اليابان فاقد همة .. لهذا لا تجد في ألمانيا وغدًا .. لهذا لا تجد في الأرجنتين أفاقًا .. كلهم هنا يا صاحبي !"

هتف في دهشة وهو يطلق أبخرة الحشيش:

ــ"يا سلام .. هناك من وعد الـ ...."

ثم لم يستكمل العبارة لأن رأسه مال على صدره ونام .. خيط لعاب يسيل على ذقنه ..

كنت أقول لهم:

ـــ"هأنـتم أولاء يـا كلاب قد انحدر بكم الحال حتى صرتم تأكلـون الكـلاب !.. لقد أنذرتكم ألف مرة .. حكيت لكم نظريات (مالـتوس) و(جمـال حمـدان) ونـبوءات (أورويل) و(هـ .ج. ويلـز).. لكـنكم في كل مرة تنتشون بالحشيش والخمر الرخيصة وتـنامون ... الآن أنـا أتأرجح بين الحزن على حالكم الذي هو حالـي، وبـين الشـماتة فيكم لأنكم الآن فقط تعرفون .. غضبتي

عليكم كغضبة أنبياء العهد القديم على قومهم، فمنهم من راح يهلل ويغنـي عندما حاصر البابليون مدينته .. لقد شعر بأن اعتباره قد تم استرداده أخيرًا حتى لو كانت هذه آخر نشوة له .. إنني ألعنكم يا بلهاء .. ألعنكم !"

لكن ما أثار رعبي أنهم لا يبالون على الإطلاق ..

لا يهتمون البتة ..

إنهـم يبحـثون عن المرأة التالية ولفافة التبغ التالية والوجبة التالية ولا يشعرون بما وصلوا إليه ..

إنني ألعنكم يا بلهاء .. ألعنكم !

-4-

(صفوت) يعمل في يوتوبيا ..

إنـه يغطـس فـي المجاري ليقوم بتسليكها، برغم أن شبكة المجـاري هناك جيدة ويقومون بصيانتها بعناية. يجب أن أقول إن تلـك المجتمعات المغلقة لها خدماتها الخاصة المستقلة. بالنسبة لنا لـم يعـد هـناك ما يدعى مجار .. نحن نتصرف .. تعتمد معظم البـيوت على (الترنشات) وهناك عربة تكسح هذه ثم تتخلص منها فـي موضع غير بعيد. بعض الناس بلا بيت أصلاً لذا لا تشكل له المجاري مشكلة .

من المسلي أن تلاحظ إلى أي حد انكمشت احتياجات المرء.. فـي البدء كانت هناك شقق بها أجهزة هاتف وثلاجات وتلفزيون وحمامات .. لهذا كان الناس دائمي الشكوى من حياة الكلاب التي يـرغمون فـيها على مشاهدة برامج تلفزيونية سخيفة، مع انقطاع الكهـرباء، وانقطاع اتصال الهاتف ، وانقطاع المياه .. عندما تفقد هـذا كلـه لا يعود هناك مصدر للشكوى .. هذا نوع خاص من الكارمـا كمـا ترى . عندما لا تكون هناك كهرباء فهي لا تنقطع أبدًا.

فلتزأر العاصفة .. فلتزأر العاصفة ...

(صفوت) يعمل في يوتوبيا ..

(صفوت) غواص مجار في يوتوبيا ..

(صفوت) يقرأ الجريدة ويقول لي:

ــــ"سـوف يلغـون الجمارك على الأخشاب المستوردة من الاتحاد الأوروبي.."

ثم ينظر لي في حيرة ويسألني:

ــ"هل هذا مفيد ؟.. ولمن ؟"

أقول له خلاصة فلسفتي التي كونتها طيلة هذه السنين:

ــــ"لا أفهم معنى هذا لكنه مؤذ لنا وخلاص .. أي قرار يتخذ في أي وقت هو ضدنا .."

(صفوت) يبدي علامات الفهم ..

(صـفوت) على علاقة بخادمة. يبدو أنها مصابة بفقدان الشم أو زكـام. وهذه الخادمة كانت تجلب له الفلوجستين. مخدومها لا يبالـي بهـذا السـائل الثمين ويضعه في أي مكان .. وكانت هي تسرق قطرات من الزجاجة تجلبها لـ (صفوت)، و(صفوت) كان يأتيني بها ..

فـيما بعد أضيف بعض قطرات الليمون على السائل لتعطيه تلـك الـرائحة وتلـك الوخزة الباردة عندما تضعه على جلدك .. يـتحول السنتيمتر إلى خمسة سنتيمترات، وهذه أبيعها بسعر باهظ لشـبابنا . وعندما يشكون من أنهم لا يرون النيران الخضر أقول لهم في غضب:

ـ" لقد فتك الإدمان بأعصابكم يا أولاد الـ (...).. لم يعد من شيء قادرًا على أن يسطلكم سوى سكرات الموت ذاتها .. "

هكذا يخرسون .. فكلامي لا يخلو من صحة ..

غش ؟.. وما في ذلك ؟.. أفضل الغشاشين طرًا هو من يغش المخدرات .. هذا رجل قديس يعمل لمصلحة الناس في رأيي.. إنه مصلح اجتماعي ينعم بالمال !.

* * *

(صفوت) يعمل في يوتوبيا ..

وقد كنت في انتظاره لدى العودة من هناك ..

منذ اللحظة الأولى ترجل هذان فشعرت بأنهما غريبان ..

لا أعرف كل واحد في المنطقة، لكني بالتأكيد أعرف البؤس والشقاء عندما أراهما .. أعرف الجوع .. أعرف الوهن .. قابلتهم كثيرًا جدًا حتى صرت أعرفهم من بعيد بسهولة تامة ومهما تنكروا ..

هنا رأيت بؤسًا وشقاء وجوعًا غير أصيلين ..

رأيت خوفًا وهذا غير معتاد .. في عالمنا لا ترى الخوف كثيرًا إنما هو نوع من استسلام للمصير وقنوط ..

وقفت من بعيد أراقبهما ..

رأيت الدهشة .. رأيت الاشمئزاز .. رأيت التقزز .. رأيت التوجس ..

هذه جميعًا عواطف دخيلة على عالمي .. لا احد يشمئز عندنا.. لا أحد يندهش .. أي طفل في التاسعة رأى كل شيء

وجاع كثيرًا جدًا، وغالبًا قد اغتصب ثلاث أو أربع مرات، لهذا ترى على وجهه علامات من رأى كل شيء كأنه عاهرة عجوز مجربة

قلت لنفسي إن هذين ليسا من هنا .. ليسا من الأغيار ..

فلتقطع ذراعي إن لم يكونا من يوتوبيا ..

رأيت الفتى يمشي مع الفتاة وسط الزحام وأبخرة العرق ..

توقف عند .. عند (سمية)..

إنه يتفاوض معها ..

ذوقه رديء جدًا .. (سمية) أقبح الفتيات هنا وهي أقرب إلى ذكر مكتمل الرجولة، دعك من أن عمها هو (السرجاني) ذاته !.. السرجاني الذي أطار قرنيتي ..

ومن عجائب المصادفات أن السرجاني فقد عينًا – أو قرنية – في مشاجرة ليست بالبعيدة جدًا. لم تعد علاقتنا سيئة جدًا كما كانت لكننا نتحاشى المواجهة .. فقط نتبادل النباح من جديد عندما نرى بعضنا ..

لم يكن بلطجيًا .. إنه قواد .. صحيح أن جسده يوحي بالمهنة الأولى لكن دعني أؤكد لك إنه قواد .. لا يبيع قوة جسده وبطشه ولكن يبيع نساءه. بضاعته الوحيدة هي (سمية) وبالطبع لم تكن رائجة جدًا ..

هذا الفتى الأحمق اختار (سمية) وبهذا صار تحت رحمة السرجاني .. يمكنه أن يعمل أي شيء .. يهدده بالسنجة ويأخذ كل شيء معه، أو يتهمه بالاعتداء على شرف الأسرة – على طريقة

(ستيفان روستي) في الأفلام القديمة – وبرغمه على قبول أي شرط مجحف ..

السؤال الأهم هنا: ما دور الفتاة التي معه ولماذا لا يكتفي بها ؟.. هل هي أخته ؟.. من الذي يتفق مع بائعة هوى أمام أخته ؟.. بل من الذي يتفق مع بائعة هوى أمام أية أنثى أخرى ؟

على كل حال قد أخذ الفتى (سمية) ودخل بها إلى الخرائب ..

لن يتحرش به أحد . هي تحميه .. فقط لو صرخت أو استغاثت أو أصابها مكروه فلسوف يتحول إلى شرائط ... سوف يمزقه الفتية الموجودون في الخرائب يتعاطون الكلة، إلى أن يصل عمها لينهي عملية السلخ ..

كان الفضول يستبد بي كي أعرف أكثر، لذا نسيت كل شيء عن (صفوت) وما يحمله، ورحت أشق طريقي وسط الخرائب بحثًا عن (سمية) وزبونها ..

على الأرجح سوف تواجه الفتاة التي معه المشاكل.. أنا لا أطيق أن أرى فتاة في مأزق، لأن هذا يذكرني بـ (صفية)...

أعتقد أن بوسعي أن أنقذها لو حدث شيء ..

لست قويًا لكنني ذو شعبية، كما إنني من شلة (عبد الظاهر) وهو يفرض علي حمايته . أي اعتداء علي هو اعتداء على الأخير، وهذا ليس أمرًا هينًا ..

كنت أقف هناك في الظلام، عندما فوجئت بمنظر غريب .. الفتى يهوي على عنق (سمية) بسيف يد فتهوي كجوال ثقيل على

الأرض. لم يكن يريدها كامرأة .. كان يريد إيذاءها لسبب لا أعرفه ..

أو ربما أعرفه !

لكنه غبي فعلاً... السرجاني لا يترك سمية تغيب عن عينيه، وبالتالي لابد من واحد يراقبها من بعيد ليضمن أنها لن تهرب أو تأخذ المزيد من المال من الزبون .. هكذا عرفت أن النبأ وصل إلى السرجاني بسرعة البرق ..

عشرة من شبابنا يركضون في الظلام .. يثبون فوق بقايا الجدران المتهدمة والقرميد وأكوام القمامة .. يثبون فوق الصخور .. يثبون فوق اللحظة ...

إنهم يحيطون بالفتى وفتاته بينما تكومت (سمية) على الأرض لا تعرف ما يدور هناك ..

وصاح (سوكة) بصوته الحلقي الغليظ:

ـ"إنهما ليسا منا !... هذان من يوتوبيا !!"

الجزء الثالث

الصياد

-1-

الحقــد فــي العــيون كان واضحًا جليًا .. ذات النظرة التي ظهــرت فــي عــيونهم وهم يهدمون (الباستيل).. هم ذاتهم .. إن للرعاع جنسًا وشكلاً موحدين مهما تباينت بلدانهم ولغاتهم .. وفي الأيــدي التمعت نصال لا تنتمي للمدي إنما هي أجزاء من هياكل ســيارات تــم تحويلها لأدوات قتل ..هناك ماسورة مياه أو اثنتان على طريقة عصابات (نيويورك)..

ارتجفت جرمينال والتصقت بي .. لن نفلت من هذا ..

وشــعرت بــيد تفــتش جيبــي في غلظة، ثم خرجت حاملة الموبايل ..

عــيونهم تحتشــد على الجسد الراقد على الأرض .. الرسالة واضحة تمامًا وقد فهموها:

ـــ"إنهم يخطفون أي واحد منا يجدونه ليتسلوا به عندهم، ثم إنهم يقتلونه !"

أدركت أن الضربة الأولى هي التي ستفجر السد بعدها تنهال الضــربات .. فقــط من يبدأ بها ؟.. وداعًا جرمينال.. كانت حياة مملــة بــرغم كــل شــيء .. ربما كان الخلاص منها نوعا من التغيير..

ـ"لا تؤذوهم يا شباب .. إنهم أبرياء .. أنا رأيت الفتاة تسقط ولم يلمسها أحد.."

كـان هذا أحدهم يتكلم في حزم.. لم أتبين ملامحه لأن عيني كانت تنظر إلى الموقف لا الأشخاص ..

قال أحدهم:

ـ"أنا رأيته يضربها يا جابر"

قال منقذي الغامض:الذى صار(جابر)

ـ"أنت لا ترى شيئًا يا بن الـ (...).. لقد أطارت الكلة عقلك وأعمتك"

ثم همس في أذني:

ـ"هل معك فلوجستين ؟"

ترددت فهمس:

ـ"إما هذا وإما أن ترى أذنيك على الأرض بعد لحظة !"

مـددت يـدي إلى جوربي وأخرجت الزجاجة الصغيرة التي تشـبه أمبولاً يتم لصقه إلى الكاحل بشريط، فاختطفها مني ولوح بها أمام العيون:

ـــ"هـل تعرفون هذا ؟.. (فلوجستين) !.. من لم يجربه بعد فليعـرف أنه شيء يختلف كلية عن (الكلة) والبانجو والصراصير .. خـذوه وجربوا .. نقطة واحدة على الساعد ..لا تكثروا منه يا أولاد البلهاء فقد رأيت من يموت في ثوان لأنه وضع نقطتين"

يبدو أنهم كانوا جميعًا يعرفون ما يتكلم عنه ..

علـى الفـور نسَـوا كـل شيء عن الانتقام، وانقضوا على الأمبول وراحوا يتبادلون الشتائم البذيئة .. فجأة لم يعد لنا وجود..

أحـدهم حـاول أن يـركض بالأمبول فوضع آخر ساقه في طـريقه فسقط .. انقض على الأمبول ونزعه فقط ليغرس أحدهم إصـبعيه فـي عينيه .. هنا انقض أحدهم يعض مؤخرة هذا الذي غـرس إصـبعيه .. فـي هذا الوقت كان الذي سقط قد هب على قدميه وركل من يعض المؤخرة في وجهه .. كتلة أجساد تتصارع فـلا تعرف أبدًا من أين يبدأ هذا وينتهي ذاك .. من المغلوب ومن الغالب ؟

لـم يسأل أحدهم عن كيفية حصولي على هذه الكمية .. لابد مـن التعاطي أولاً ثم الفهم بعدها .. فقط الحمقى هم من يتوقفون أمام الفلوجستين ليتساءلوا عن مصدره ..

لـو توقفـوا لحظة لأدركوا أن وجود الفلوجستين معي يؤكد التهمة ..

صاح جابر في الجمع الذي لم بعد يسمع ولا يرى:

ـــ"إنهمـا لصـان !... لقد سرقا هذا الفلوجستين من كلاب يوتوبيا !"

كأنه يمنحنا بهذا صك غفران !

هنا رأيت ذلك العملاق القواد قادمًا من بعيد وهو يلوح بسيفه مطيـرًا رقابًا وهمية، بينما تنطلق منه قذائف من الشتائم .. شتائم لا يمكن التلميح لها هنا ..

كان قادمًا نحونا وهو يرغي ويزبد، هنا ابتدره الفتى صائحًا:

ـ"فلوجستين يا سرجاني !... فلوك !... فلوك !"

لم يخفف الرجل من سرعته إنما غير مساره بعد ما كان متجهًا مباشرة نحوي، ليندفع نحو المتقاتلين .. لم أفهم ما حدث لكني متأكد من أنه هوى بسيفه عليهم .. يبدو أن استيعاب هؤلاء القوم سريع جدًا، وترددهم معدوم . الصقر الذي لا يجد وقتًا ليفهم ما يدور هنا، ولكنه ينقض ثم يفهم ..

أشار لنا الفتى منقذنا من طرف خفي لنبتعد فجرينا وراءه ..

لو لم نثق فيه فبمن نثق ؟

* * *

كشف الدكتور أحمد عكاشة في أحد المؤتمرات عن أن هناك في مصر أكثر من مليوني مدمن, و12 ألفاً يتعاطون الهيروين, ومليون يتعاطون مخدرات أخرى كالبانجو وأبي صليبة في المرحلة العمرية من 12 إلى 19 عاما.. يتصدر البانجو القائمة ويليه الحشيش .. يعرف الباحثون جيدًا أن المخدرات وراء تزايد معدلات الجريمة في مصر من خطف واغتصاب السيدات وقتل الآباء, وأنها تستنزف سنويا ما لا يقل عن مليار جنيه من تكلفة المكافحة والتهريب.

* * *

وسرعان ما كنا في مكان ما من هذه الخرائب .. ثمة كوخ صغير مكون من قطع خشب وأجزاء مفككة من هيكل سيارة وصحف وأشياء غريبة جدًا.. أزاح قطعة من المشمع لندخل ففعلنا هذا مجبرين ..

كانت حالة الكوخ من الداخل أسوأ .. هناك إطارا سيارة يستعملان كمقعدين، وهناك موقد كيروسين صغير وهناك أكوام من الكتب لم أر مثلها في حياتي ..

الدليل الوحيد على وجود كهرباء يأتي من مصباح واهن يتصل ببطارية سيارة عتيقة . وقد تم تعليق سلك المصباح على عصا تبرز من الخشب .. إضاءة لعل الظلام منها افضل منها وأكثر بهجة .. إضاءة سقيمة .. إضاءة خلقت كي تنطق كلماتك الأخيرة فيها قبل أن تخرج الرغوة البيضاء من فمك وتموت ..

للمرة الأولى أتمكن من تفحص ملامح هذا المنقذ .. كان في الثلاثين من عمره نحيلاً منكوش الشعر تبدو عليه بوضوح سمات سوء التغذية، لكنه قوي البنيان كالذئاب. وعلى أنفه نظارة تم لحامها بالنار ألف مرة، ومن تحتها وجه امتلأ بالخياطة كأنه وجه المسخ في أفلام (فرانكنشتاين) .. لاحظت كذلك أن له قرنية ذابت وتحولت إلى عجينة بيضاء .. قلت له:

ـ"شكرًا على إنقاذنا .."

قال وهو يزيح بعض المهملات ليسمح لنا بالجلوس:

ـ"اسمي (جابر).. لا شكر على واجب ..أكره القتل على الجانبين، برغم أنكما جئتما طبعًا للفوز بتذكار فريد ! .. أنتما من يوتوبيا طبعًا !"

ـ"لا .. لسنا من .."

نظر لي في حدة بعينه التي تحولت إلى عجين وقال:

ـ" لا تحاول خداعي .. كلنا يعرف ما يفعله اللصوص عندما يتسللون لنا .. ومتى فرغوا من مهمتهم جاءت طائرات المارينز لتنقذهم مع صيدهم .. ماذا يقول لك أبوك عندما تعود له بواحد منا؟.. (كخ) ؟.. عيب ؟ .. يا للقسوة !"

نظرت إلى جرمينال فنظرتْ لي ..

شعور بعدم الراحة يغمرنا .. نحن لم نخدع أحدًا. الآخرون كانوا سيمزقوننا في الحال، أما هذا فيدخر لنا مصيرًا لا أعرف ما هو لكنه بطيء .. بطيء وكل ما هو بطيء قاس ...

ـ"ما اسمك ؟"

قلت بلا اكتراث:

ـ"علاء"

ابتسم في خبث وقال:

ـ"طبعًا لو حسبت أنني سأصدق لحظة واحدة أنك علاء فأنت ترى في وجهي غباء، لكن لا يهم .. لا قيمة للأسماء إلا في جعلك تعرف أنني أوجه لك الكلام .. سنفترض أنك علاء ولتكن هي مها .. علاء ومها .. جميل .. هل أنتما أخوان ؟.. سأفترض هذا كذلك .. لكن لو لم تكونا أخوين فلتعلما إنني لن اسمح بأي شيء تحت سقف بيتي أو تحت قماش عشتي، لأنني لم آت بكما لهذا الغرض، ولا أعيش وحدي"

سمعنا حركة ودخلت الكوخ فتاة في العقد الثاني من العمر .. يبدو أنها مليحة وإن كانت قذارة أسمالها تخفي أي حسن .. القذارة جعلت ثوبها صلبًا لا يرف ولا يهتز كأنه من جلد مدبوغ.. نظرة

الحيوان الخجول الوجل المتواري في الدغل تبدت في عينها عندما رأتنا .. فيما بعد عرفت أن هاتين العينين تنطقان بكل شيء كأنهما متصلتان بالروح مباشرة ...

قال لها باسمًا:

ـ"هذه أختي .. تعالي يا (صفية).. كنت تسألين عن منظر هؤلاء الأثرياء الذين يقيمون في مستعمراتهم الخاصة .. هذان منهما !..."

نظرت لنا في عدم فهم .. نحن نبدو في حالة أسوأ منها ..

قال الفتى:

ـ"هذا لزوم التنكر .. نوع من الشحم الذي يضعه الممثلون على وجوههم.. لقد جاءوا ليظفروا بواحد منا يتسلون به .."

وبدأ انفعاله يتزايد رويدًا رويدًا كأنه يبصق الحقد الذي يتراكم فوق روحه:

ـ"لماذا لا تتركوننا وشأننا ؟.. سرقتم منا الماضي والحاضر والمستقبل .. لكنكم تكرهون أن تتركونا نعيش .."

وقبل أن أفهم من أين جاء ولا متى وجدت نصل سيف عملاق تحت ذقني .. ومن بين أسنانه الصفر قال:

ـ"هل ترى أن آخذ منك تذكارًا كما تفعلون معنا ؟... إن أذن فتاة ستكون تذكارًا ممتازًا .. أذن دقيقة حمراء نظيفة .. سوف يحسدني الجميع عليها وربما اقترضوها مني .."

ثم انفجر في ضحك وحشي .. ضحك وحشي .. وحشي ..

ظللنا صامتين.. كنت حائرًا بين إظهار الخوف فأشعل ساديته أكثـــر، أو إظهـــار اللامبالاة فأثير غيظه وجنونه .. النتيجة إنني ظللــت أرقب وجهه بوجه كالصخر ليس عليه أي تعبير. ونظرت لجــرمينال بطرف عيني فوجدت أنها على الأرجح قررت الشيء ذاته ..

في النهاية هدأ .. فقال للفتاة:

ـ"أعدي لنا شيئًا يؤكل .."

* *

كان اسم صاحبه (عزوز)..

ضــخم الجثة له عين يسرى ترفّ طيلة الوقت . كأنه يتوقع الشؤم منذ ولد ..

عزوز دخل الخرائب ليقضي حاجته في تلك الليلة عندما ظفر به ثلاثة من يوتوبيا .. اضطروا لقتله عندما لم يتمكنوا من خطفه. ثلاثة فتية أقوياء البنية في عيونهم قسوة وبرود وتعال..

لم يعرفوا هنا ما حل به إلا عندما رأوا طائرة المارينز تحلق فوق الخرائب، وكشافاتها الساطعة تمسح المكان. عندها عرفوا أن أحدهم سقط ..

راح الــناس يقذفون الهليوكوبتر بالحجارة، وأخرج (مرسي) المسدس الذي قام بصنعه بنفسه في ورشة خراطة، وأطلق طلقتين على الطائرة ..

ارتفـــع الوحش المزمجر وهو يصوب كشافاته في كل اتجاه، ثـــم هبط قليلاً، وأمكنهم أن يروا جندي المارينز الجالس على باب

الطائـــرة المفتوح وقد وضع البندقية الآلية بين فخذيه، وراح يطلق الرصاص بلا تمييز على جموع الغاضبين ..

سقط كثيرون .. سقط (مرسي) ذاته ..

والطائـــرة تدخل إلى الخرائب، ثم يتدلى منها سلم من الحبال .. يتســلق الفتية الثلاثة السلم وهم يصرخون صرخات وحشية، ثم ترتفع الطائرة ..أولاد الكلب حسبوا أنهم يمثلون فيلمًا أمريكيًا عن حـــرب فيتـــنام .. الفتـــية صاروا داخل الطائرة وهم ينظرون من أعلـــى إلـــى الجمـــوع الغاضبة .. أحدهم لوح بشيء دام في يده وأطلق سبة بذيئة ..

هـــرع (جابر) إلى حيث كانت جثة مرسي والتقط المسدس .. ثـــبت يده اليمنى باليسرى وأحكم التصويب، لكن الطلقة التي دوت لم تجرح أحدًا. فقط آلمت ذراعه بشدة ، وتردد صداها على مدى دهور..

وابتعدت الطائرة ..

هـــرع الجمـــيع إلى الخرائب على ضوء المشاعل .. وهناك جـــوار جدار وجدوا جثة عزوز وقد مزقتها الطعنات. فقط لم يكن لـــه ســـاعد .. لقـــد تعب فتية يوتوبيا كثيرًا حتى انتزعوه، ومن الواضـــح أنهـــم لا يملكون خبرة الجزار في التشريح . لكن لو لم يأخذوا تذكارًا لما صدقهم أحد في يوتوبيا عندما يعودون ..

ابتعدت الطائرة ...

لكنها تركت المزيد من الحقد الأعمى الأسود الذي لا يجد قناة ليسيل فيها ...

أقسم أخو (عزوز) الذي لم يكن يطيق أخاه وهو حي، ليقطعن ساعد أي واحد من قوم يوتوبيا لو سقط في يده .. الجديد في الموضوع هو أنه سيفعل هذا بأسنانه وليس بالسكين ..

الفرصة لم تأت، وإن ظل الجميع ينتظر في شغف ليرى كيف يحدث هذا ...

يعرفون أنه سينفذ انتقامه حرفيًا، ولكن مع أي واحد تعس من الأغيار يقع تحت يده في المشاجرة القادمة. هناك من سيفقد ساعده لأنه نافس (عزوز) على بقايا رغيف.. هذا مؤكد ..

هذا ما حكاه لنا جابر وأنا قبل أي واحد آخر أعرف أنه صحيح ..

-2-

والآن يا صغيرتي انظري لي واتلي صلاتك الأخيرة ..
إن عناقي المشبوب سوف يهشم ضلوعك .. سوف أعتصر روحك ذاتها ..
عندما تصعد إلى السماء مهشمة تستند على عكازين ..
سوف تسألها الملائكة عما حل بها ..
ستقول: لقد نمت مع الشيطان ذاته ..
الشيطان الذي أثملته صرخات العذارى قبل الذبح ..

من أغاني الأورجازم

* * *

الطعام الذي أعدته لنا (صفية) هذه كان خليطًا من الفول والطعمية طعام الأغيار المقدس .. أحيانًا نأكل هذه الأشياء طبعًا على سبيل التغيير لكن ليس بهذه الطريقة !.. بقايا أوشكت على الفساد من عدة وجبات سابقة قامت بخلطها وتسخينها على الموقد، ثم صبت على الخليط زيتًا وملأت قبضتها بالتوابل ونثرتها على الطنجرة..

قال (جابر) مفسرًا:

ـــ"نحن نكثر من التوابل لأنها تخفي طعم أي شيء .. تخفي طعـــم الدجاج الفاسد والفول الحامض والبيض الممشش ...التوابل هـــي السلعة الوحيدة التي لم يزدد سعرها لأنها ضرورية كي نبقى أحياء .."

وناولنـــي طبقًا وآخر لـــ جرمينال.. ثم ناولته الفتاة قطعة من خبز مسود فاحتفظ بها لنفسه ..

كـــنت قـــد أكلت الفول من قبل كما قلت .. إنه يساعدك على التغييـــر عندما تمل إفطارك المعتاد، لكن جهازنا الهضمي لم يعد يـــتحمله .. لهـــذا أحجمت عن الأكل لأني لا أعرف كيف سيكون قضاء الحاجة عندهم . لا أعني أنني لا أعرف .. بل لا أريد ..

قال وهو يقلب الملعقة في طبقه:

ـــ"بالطـــبع لا تفهمان شيئا عن الوضع الذي صرنا إليه .. لكنـــي أكره ألا أخبركما بكل شيء .. الصورة التي تريانها كانت موجـــودة مـــنذ الـــبداية لكن بشكل غير واضح، ثم تضخمت شيئًا فشـــيئًا ... يصـــير الأغنـــياء أغنى والفقراء أفقر، ثم تأتي لحظة يحـــدث فيها الانهيار.. ويبدو لي أن هذا حدث في العشر السنوات الأولـــى من هذا القرن .. فجأة انهار السد .. لم تعد السياحة قادرة علـــى إطعـــام هذه الأفواه .. إسرائيل افتتحت قناتها التي صارت بـــديلاً جاهزًا لقناة السويس .. الدول الخليجية نضب بترولها أو تم الاســـتغناء عـــنه بعد ظهر (البايرول)، وطردت العمالة الوافدة .. هكـــذا وجد الاقتصاد عليه عبئًا قاصمًا، وانعدمت الخدمات للفقراء لأن الدولـــة أعفـــت نفسها تمامًا من مسئوليتهم، وخصخصت كل

شـــيء .. لم تعد هناك حكومة أو لم تعد هناك حكومة تعبأ بنا .. مـــع الـــوقت تـــوقفت الرواتب وتوقفت الخدمات وذابت الشرطة وبالتالـــي لم تعد علينا ضرائب.. كان آباؤكم من طبقة استطاعت أن تســـتخدم نفـــوذها للإثراء .. حسابات مصرفية في الخارج .. قـــروض من المصارف .. احتكار .. كل شيء كان في مصلحة آبـــائكم وضدنا على طول الخط .. هكذا استطاعت هذه الطبقة أن تتماسك وتزداد ثراء بينما هوينا نحن إلى الحضيض .. لكن الحياة معـــنا صـــارت أمـــرًا مستحيلاً... اضطرت هذه الطبقات إلى أن تعـــزل نفســـها طلـــبًا للأمـــان في تلك المستعمرات على الساحل الشـــمالي، وقـــد استعملوا رجال المارينز لأنهم يضمنون ولاءهم بيـــنما لا يضمنون ولاء البودي جارد المطحون بدوره .. إن فكرة أن يثور محيط الفقر هذا كانت تؤرقهم .. كل الثورات الشعبية في الـــتاريخ بدأت بذبح الأثرياء .. هكذا تكون مجتمعان أحدهما يملك كـــل شيء والآخر لا يملك شيئًا .. أهمية المجتمع الثاني لا تزيد علـــى كونه سوقًا استهلاكيًا لا بأس به .. حتى لو كان يعاني الفقر فـــإن كثافـــته السكانية تسمح بكل شيء .. لو ابتاع كل منا زيتونة فلسوف يصير بائع الزيتون مليونيرًا ..."

ثم توقف عن الأكل وسألني:

ـــ"هل لديكم إسرائيليون في يوتوبيا ؟"

قلت في دهشة:

ـــ"كثيرون .. أعز أصدقائي منهم .."

قال وهو يعاود المضغ:

ـــــ"هــذه سمة مهمة لدى قومك .. لقد اتخذوا موضعهم في الشـــرق الأوســط الجديد الذي كانوا يتحدثون عنه .. المثلث الذي حلمــت به إسرائيل كثيرًا .. مال خليجي (قبل أن ينضب) .. ذكاء إســرائيلي .. أيد عاملة مصرية رخيصة .. نحن الفقراء لم نكف عن اعتبار إسرائيل عدوًا"

قلت في غيظ من كل هذه المحاضرة:

ـــــ"ولماذا أعتبر إسرائيل عدوًا ؟.. هل لمجرد أن هذا يروق لك ؟"

نظر للفتاة وتبادل ابتسامة منهكة وقال:

ــ"نم الآن ..نم .. إن نصف ما أعرفه لا تعرفه .. والنصف الآخــر لا يهمك أن تعرفه .. نم وفي الصباح نرى كيف تخرجان من هنا محتفظين بأذنيكما .."

ثم هز الملعقة في يدي وقال:

ـــــ"لا ألاعــيب .. إنهم يعرفون مكاني وسوف يعودون هنا عــندما يزول مفعول الفلوجستين .. عندها يجب أن أكون موجودًا لأحميكما وإلا ...."

وأشار لعنقه بحركة ذات معنى..

* * *

هكــذا لم نستطع الفرار .. لم يكن هذا مطروحًا دعك من أننا كنا مرهقين فعلاً.. ألعن ليلة في حياتنا ونحن نجلس متلاصقين في هذا الكوخ كريه الرائحة لا نجرؤ على أن نتمدد أو نلمس أي جزء

مــن الجــدار ... هكذا سوف نبقى حتى الصباح وبعدها ؟.. كل شيء يتوقف على خطة هذا الفتى ...

أنــا لا افهمه .. أعتقد أنه من الطراز المثقف في وسط ليس وسطه .. الخروف الذي يفكر يصير خطرًا على نفسه والآخرين. أنا أعتبر مثقفًا في يوتوبيا .. أنا من القلائل الذين قرءوا كل شيء وقــع تحت أيديهم، لكن هذا لا يجعلني أتعاطف معه ذرة .. ليست الثقافة دينًا يوحد بين القلوب ويؤلفها، بل هي على الأرجح تفرقها، لأنهــا تطلــع المظلومــين على هول الظلم الذين يعانونه، وتطلع المحظوظــين علــى مــا يمكن أن يفقدوه .. إنها تجعلك عصبيًا حــذرًا.. دعك من تحول قناعاتك الثقافية إلى دين جديد يستحق أن تموت من أجله، وتعتبر الآخرين ممن لا يعتنقونه كفارًا ..

كــان شخير (جابر) قد بدأ يتعالى هو راقد في الركن منكمشًا على نفسه..

ماذا يريد من الحياة ؟.. لماذا يظل حيًا ؟

لو هددته بسكين لصرخ ولركل يدي .. لماذا ؟...

فــي الضــوء الخافت جلست أخته جوار جرمينال تنظر لها وهي شبه نائمة..

جــرمينال نائمة كطفل .. تتحرك شفتيها .. تهمس من روح معذبــة: ليلى .. ليلى ... ليلى هي أمها طبعًا (فلا احد في يوتوبيا يستعمل لفظة ماما أو بابا).. للمرة الأولى أراها مجرد طفلة معذبة تريد العودة إلى أمها. لم أر جرمينال إلا ثائرة ملولاً متعالية. لابد من النوم على الأرض كي تظهر لي حقيقتها ..

ظلت (صفية) بضع دقائق تنظر ثم مدت يدها في حذر إلى شعر جرمينال وراحت تتلمس خصلة منه .. ثمة شيء حيواني غريب في تلك اللمسة لم أرها من قبل إلا مع قرد مد يده ذات مرة يتحسس أناملي في وجل وفضول عندما كنت في حديقة حيواننا.

هبت جرمينال منتفضة وأبعدت رأسها قليلاً ثم غاصت في النعاس ثانية .. لكن الفتاة فعلت بالضبط ما توقعته .. وثبت للخلف مترًا بطريقة زادتني اقتناعًا بنظرية القرد تلك .. هذه حركات غير بشرية .. هذه حركات تمت بصلة لانعكاسات حيوانية متوارثة ولا دخل للعقل فيها ..

قالت الفتاة بصوت مبحوح:

ـ"شعرها جميل .. جميل جدًا ونظيف .. لا أعرف كيف تصورتم أن تخدعونا .. ليس بشعرٍ كهذا !"

ثم مدت يدها إلى يدي فأمسكتْ بأناملي برفق وقالت:

ـ"هل ترى الفارق ؟"

نعم أرى الفارق .. يد ناعمة نظيفة منمقة ويد خشنة متسخة مقصفة الأظفار .. الغريب أن الأولى هي يد الرجل والثانية يد الأنثى ..

قلت بلا مبالاة:

ـ"كنا في الظلام .. يمكنك أن تخدعي أي واحد في الظلام، وكنا سنعود بسرعة .."

ثم أشرت لأخيها النائم وقلت:

ـ"من أين يعرف هذا كله ؟"

ـ"يصمم أن يقرأ .. يبحث في القمامة عن كل كتاب قديم فهي أشياء لم تعد تباع .. هذه مزية أن تهتم بأمور لم تعد تهم أحدًا .. على الأقل لن يسرقك الآخرون .. هذه الكتب ملقاة هنا منذ سنين بينما لا يمكن أن تترك عود ثقاب من دون أن يأخذه أحد.. إنه ..."

ثم راحت تسعل في عمق حتى توقعت أنها ستبصق رئتيها خارجًا .. فانتظرت حتى فرغت وأنا أنظر لها في دهشة فقالت في شيء من الفخر:

ـ"هذا درن .. إنه يعود منذ تسعينات القرن الماضي.. ليس لدينا علاج، وهو لا يجدي على كل حال"

ثم أشارت لأخيها النائم وقالت:

ـ"هو من طبقة (التلامذة).. إنهم هؤلاء الذين دخلوا كليات أو جامعات منذ عشر سنوات ثم لم يجدوا عملاً، ولم يستطيعوا أن يصنعوا شيئًا بما تعلموه .. لكن علاقتهم بالكتب لا تنتهي .. منذ عشرين سنة لم يعد لأحد فرصة على الإطلاق ..لم لو يكن أبوك ضابط شرطة أو رجل أعمال أو تاجرًا يورثك تجارته، فلا فرصة لك على الإطلاق وسوف تنضم لهؤلاء الذين يشمون (الكلة) في الخرائب.."

ثم تثاءبتْ كثور وأغمضت عينها .. رحت أرقبها وأنا جالس.. مليحة بلا شك لكن كيف يمكن أن تجد هذه الملاحة تحت كل هذه الخشونة والقذارة ؟.. أن تزيل كل هذه الأعوام من المعاناة والفقر والجوع ؟.. مستحيل .. هذه الفتاة ستتزوج واحدًا

مـــن هؤلاء يوسعها ضربًا ثم تموت في إحدى نوبات غضبه .. لا يبدو أمامها مستقبل آخر ..

لا أعتقد أنني نمت ..

لو سألتني لقلت لك إنني لم أنم ..

لكـــن هناك ذلك الضباب الذي يحيط بك ويتأرجح بين الكثافة والخفـــة .. الوعـــي يـــنغمس في مستنقع ويخرج منه .. كذا كان نومي ..

-3-

الصـــباح .. لا إفطار لأن وجبة واحدة تكفي المرء .. دعك من أننا كنا زاهدين في الطعام كل الزهد.

الصباح و(جابر) خارج الدار ..

الصباح وصفية تقوم بأعمال غريبة من نوعها ..

تمزق الأوراق من مجموعة من كراسات المدارس القديمة ..

تقطع بعض العلب من الورق المقوى إلى شرائح طويلة ..

تسكب سائلاً أسود في إناء ..

تجمع أعواد ثقاب تالفة في كيس ..

تلحم قطعا من البلاستيك ..

تبري بقايا صابون وتضع عليها بعض البوتاسا الكاوية ..

تسكب بعض الماء في البطارية ..

تمزق قطعة من الليف إلى أشلاء ..

غـــريب حقـــا هـــو جدول الأعمال المنزلية لدى نساء هؤلاء القوم. قال (جابر) إنه لا يهمني أن أعرف كل شيء وهذا رأيي . ليســـت مـــتابعة نشـــاطات الصراصـــير ذات أهمـــية إلا لعلماء الحشرات..

لن أسألها عن شيء .. لن أسألها عن تمزيق كراسات المدارس القديمة، ولا عن سبب تقطيع علب الورق المقوى.. لن أسألها عن السائل الأسود ولا عن سبب جمع أعواد الثقاب التالفة.. لن أسألها عن لحام البلاستيك ولا بري قطع الصابون .. لن اسأل عن الماء في البطارية ولا تمزيق الليف ..

صراصير ..

جرمينال تراني أراقب (صفية) في فضول .. تهمس جرمينال في أذني:

ـ"لا تقل إنك تريدها .."

قلت إنني لا أمانع .. لها مذاق خاص فريد يختلف عن مذاق الفتيات اللاتي اعتدتهن . اللاتي لهن نفس العطر والشعر الحريري والوشم والقرط في الأنف أو الشفة السفلى .. اعرفهن وأحفظهن كما تحفظ أنت الدجاج .. لا توجد دجاجة تختلف عن الأخرى ويمكنك أن تشعر بأنك أكلت هذه الدجاجة من قبل، أما هذه فلابد أنها تجربة تختلف .. لكني لن أجازف بمغازلتها ونحن تحت رحمة (جابر)..

لن أجازف بمغازلتها وطبقات القذارة تغلفها وربما تغلف روحها ..

لن أجازف بمغازلتها وهي تسعل دمًا كل خمس دقائق..

* * *

لم يفعل (جابر) شيئًا طيلة هذا النهار .. لما سألته عما ينوي عمله بنا قال في غموض:

ـ"انتظرا حتى الوقت المناسب .."

ـ"ولماذا لم تتخلص منا ؟"

ـ"لأنني أمقت العنف من الطرفين، ولأنكما جاهلان لا أكثر.. لم تفعلا إلا ما يفعله الفأر الذي يحاول سرقة بعض الخبز لأنه لا يعرف شيئًا آخر .. هذه غريزته وتلك فطرته . لكنكما لستما فأرين .. هذا ما أحاول أن أخبركما به.."

ثم أخرج علبة بها بعض الشحم، ولوث أنامله ثم قال وهو يضع يده جوار خدي:

ـ"بعد إذنك !"

ـ"تفضل .."

هكذا لوث وجهي ووجه جرمينال .. بعناية ودقة هذه المرة.. قام بتلويث أيدينا ثم انتخب لنا ثيابًا أكثر قذارة .. هذه المرة كانت هناك أستاذية لا شك فيها في لمساته، حتى بدت جرمينال كالمتسولين واعتقد أنني أبدو بصورة أسوأ.. ثم شرح لي كيف نمشي وكيف نتكلم ..

ـ"هؤلاء قوم رأوا كل شيء وعرفوا كل شيء، لذا هم لا يتكلمون تقريبًا .. قللا كلامكما قدر الإمكان .. مثلاً لو أردت شراء شيء راق لك فلا تسأل عن الثمن كتلاميذ المدارس .. امسك الشيء بغلظة وانظر في عيني البائع متسائلاً.. لا تقل شيئًا.. سوف ينظر في عينيك بشراسة ويقول لك (مائة) مثلاً، ولا يزيد .. عندها تأتي بحركة بذيئة من إصبعك وربما تطلق صوتًا قصيرًا من حلقك .. ثم الق له بخمسين ولا تتكلم .."

ثم فكر حينًا وأضاف:

ـــ"العــادات الحمــيدة تقتل هنا .. لابد من أن تبصق على الأرض مــن حــين لآخــر .. تحسس عضوك التناسلي من فوق الثياب من وقت لآخر .. هي لابد أن تهرش صدرها ورأسها.. المفروض أن الأول يعج بالبراغيث والثاني بالقمل .. هذه لمسات مهمة وتقلل من النظرات الفضولية لكما"

قــال لي إننا بصدد جولة يريني فيها ذلك العالم الذي اجهل كــل شــيء عنه.. قال إننا حران لو أردنا الفرار لكنه لا يضمن حياتينا لحظة أخرى بعد هذا ...

ـ"سوف ترتكبان جملة من الأخطاء، ولسوف يمزقونكما في اللحظة ذاتها .."

هكــذا غادرنــا الكــوخ الحقير لنخرج إلى شوارع في غاية الازدحام والفقر .. هناك لمسات تدل على أنه كانت هناك حكومة يومًا ثم تخلت تمامًا عن كل شيء .. في الأزقة والشوارع الجانبية تحدث المشاحنات لأي سبب ومن دون مبرر ..

ــــ"إنهــا أخلاقــيات الزحام .. ضع ست دجاجات في عشة ضيقة وراقب كم تصير مهذبة .. لو أن دجاجة واحدة لم تفقأ عين جارتها أو تلتهم أحشاءها فأنا مخطئ .."

سألته وأنا أمسك بيد جرمينال الممتقعة ذعرًا:

ـ"لماذا تستمرون في التكاثر إذن ؟"

ـ"لأن التكاثر هو رفاهية الفقراء الوحيدة .. دعك من أن كل هــؤلاء يعــتقدون أن واحــدًا من أبنائهم سيغير كل شيء .. في

انــتظار هــذا المجهول يتكاثرون، والصبي يسعى بحثًا عن رزقه كدجاجــة .. لا أحــد يعرف إن كان قد مات أو أكل أو نام .. في ســن الحاديــة عشــرة يــتعلم استنشاق (الكلة) وبعد هذا يضطر لارتكــاب الجريمة كي يتعاطى ما هو أفضل .. طبعًا من يسرقه فقيــر مثله لأنه لا احد يستطيع أن يسرق منكم .. مستقبل مشرق كما ترى .."

ثم حك رأسه وابتسم:

ـ"برغم هذا انخفض معدل خصوبتنا كثيرًا .. جيلان كاملان أكــلا طعامًا ملوثًا ويعج بالهرمونات .. هكذا صار من المعتاد ألا ينجب المتزوجون لكن المحصلة النهائية هي أننا نتزايد بلا توقف على كل حال .. كانت هناك فرق إخصاء ثم انتفت الحاجة لها .."

هتفت جرمينال في ذهول:

ـ"فرق إخصاء ؟"

ـ"نعم .. ألم تسمعي عنها ؟.. مجموعات من رجال الشرطة الملثمين يهاجمون الفتيان .. بسرعة وبدقة جراحية يخدرون الفتى ويقطعون حبله المنوي ثم يخيطون الجرح ويفرون .. بهذا يصير عاجــزًا عن الإنجاب للأبد.. في المتوسط كان يتم تعقيم ثلاثة فتية في الليلة الواحدة"

ـ"وماذا حدث بعدها ؟"

ــــ"متدينون كثيرون في يوتوبيا قالوا إن هذا حرام .. فلنعتمد علــى الطعام الملوث ليقوم بالتعقيم بنفسه بدلاً من أن نتحمل نحن الــوزر ! .. وهكــذا تــزايد نشاط تلويث الطعام، وقد تمت زيادة

جرعة مادة الجوسيبول في الزيوت التي نتعاطاها إلى أعلى معدل ممكـــن لها، وهذه المادة شديدة الفعالية في قتل الحيوانات المنوية وتدميـــر نســيج الخصية .. برغم هذا نحن نتكاثر كالبكتريا .. لا تـــوجد طـــريقة للقضاء على البكتريا في العالم مهما استعملت من مضادات حيوية فعالة .. إنها تجد طريقًا دائمًا .. "

سألته السؤال الذي كان يلح علي ليلاً:

ــ"ولماذا لا تثورون ؟"

انفجر يضحك حتى سال دمعه وقال:

ـــــ"هــذا شـــيء يتكرر من حين لحين .. لكن ثورات القرن العشرين التي تحقق غرض الجموع قد صارت تاريخا بائدًا .. لقد تعلــم مـــن هم فوق من أخطاء الآخرين .. لن يرى أحد ثانية شاه (إيـــران) الـــذي يحلق بطائرته بحثًا عن بلد يؤويه، ولن ترى جثة (شاوشيســكو) أو (موســوليني) معلقة في ميدان عام .. إن النظام الأمني معقد متطور اليوم .. هناك ستة أجهزة أمنية تراقب بعضها ومهمـــة كل منها حماية الحكام .. إن ثورات اليوم هي أقرب إلى (هوجة) ثم تحلق طائرات الهليوكوبتر لتلقي عدة قنابل وتطلق عدة طلقات فيتفرق الجميع .. "

فـــي هـــذه اللحظة اقترب منا رجل رث الهيئة له لحية غير حلـــيقة، وإن كانت ثيابه توحي بأنها زي رسمي غير معتنى به .. ومد يده لنا:

ــ"هل معكما شيء يؤكل ؟"

هز (جابر) رأسه وواصل المشي .. ثم قال:

ـــــ"إنهم في كل مكان... لا توجد أعمال .. ما لم يجد عملاً في مستعمراتكم بالساحل الشمالي فلا أحد يريد منه شيئًا .. سوف يقضـــي حـــياته يبحث عن بقايا الطعام الملقاة في أكوام القمامة ثم يموت بالدرن ذات يوم فيجدونه جوار جدار .. هذه هي حياته .."

كـــنت في هذه اللحظة قد بلغت قمة التقزز والذهول .. أتذكر (يوتوبـــيا) وبيتـــي والـــدولارات التـــي أبعثـــرها .. أتذكر الشلة والفلوجستين الذي أتحرق شوقًا له. أتذكر كلبي الذي يلتهم ما يشبع خمســـة مـــن هؤلاء يوميًا ... لست مستعدًا لحظة للتخلي عن هذا كلـــه، لكنـــي كذلك لا أبتلع فكرة وجود كل هذا الفقر .. الآن فقط أفهـــم هذه الأسوار العالية ورجال المارينز والمطار الداخلي .. لو تركنا كل هذا لسال هذا الطوفان ليغرقنا ويقتلنا .. لا أعرف كيف وصل الأمر لهذا الحد لكن لابد من أن يستمر ..

جـــرمينال راحـــت تغلي وترتجف .. وراحت تغمغم من بين شفتيها:

ــ"يا الله !.. أريد أن أعود !.. أريد أن أعود !"

ضغطت على يدها كي تخرس ...

* * *

كـــان هناك رجل يقف وسط زحام حوله، ويبيع زجاجات بها سائل ملون مدعيًا أنها العلاج الشافي من الدرن والسرطان .. إنها خلطـــة من الأعشاب صنعها هو ولا يعرف سرها اللصوص في (يوتوبـــيا) كما قال.. إنهم ينفقون مالهم في هراء يبتاعونه بأغلى الأسعار بينما العلم كله هنا ..

عندنا العلم كله ..
عندنا العلم كله ..
عندنا العلم كله ..

هـــذه أدويـــة لا قيمة لها إلا انها رخيصة !.. أي إنها تعطيك مزية أن تتعاطى شيئًا ولا تنتظر الموت عاجزًا ..

هـــناك رجـــل يقف أمام منضدة خشبية مقلوبة عليها أجهزة صغيرة .. يقول صائحًا:

ـــ"أفضل أجهزة سرقناها من (يوتوبيا).. تعال الآن !..."

وتـــوقفت عيـــناي على شيء ونظرت لـــ جرمينال فوجدتها تنظر لذات الشيء في نهم ..

كـــان هـــناك جهاز محمول صغير على تلك المنضدة، وعلى بعد متر واحد منا !

لم يكن هذا جهاز محمول ..

كـــان فراشًا نظيفًا ووجبة ساخنة وحمامًا وجنسًا وفلوجستين وكئوس خمر وبيتًا وأصدقاء ...

صورة الجهاز الفاتنة لم تفارق ذهني ...

غادرنـــا الـــزحام فتأخرت جرمينال قليلاً جوار أحد الأزقة، وقالت إنها راغبة في قضاء حاجتها. قال (جابر) بلا مبالاة إن هذا بوســـعها ..كل مكان يصلح .. الخدمات الصحية لا وجود لها لأن شـــبكة المجـــاري صارت تاريخًا .. في الماضي كانت الحكومة تتشـــدق بتجديد شبكة المجاري، لكنها أهملتها عندما صارت هناك

وســـائل أخـــرى للاسّـــتيلاء علـــى المال وبعد ما صارت اللعبة واضحة: نحن لا نبالي بكم على الإطلاق .. فلتأخذكم مصيبة ..

غابـــت جرمينال في الزقاق لربع ثانية ثم عادت راجفة وهي تصيح:

ـــ"إنه مليء بالشباب النائم !"

قال (جابر) ضاحكًا:

ــــ"إنهـــم تحـــت تأثيـــر (الكلة) ومسحوق الصراصير .. لا تخافي.. لو أن ملكة جمال الكون تعرت أمامهم لما حركوا ساكنًا.. هـــؤلاء انتهى أمرهم كرجال من زمن .. ربما انتهى أمرهم كبني آدمين أيضًا !"

هكذا عادت إلى الزقاق المليء بشباب لم يعودوا رجالاً.. ...

فجأة سمعت ضوضاء ..

فجـــأة رأيت منظرًا يشبه الغوغاء عندما هاجموا الباستيل .. حوالي عشرة رجال يحملون السيوف والعصي ويهرعون نحونا.. وهتف أحدهم وهو يشير لنا:

ـــ"هؤلاء سرقوا المحمول !.. أنا رأيت الفتاة تدسه في جيبها!

-4-

إذن هي فعلتها !..

متى وكيف ؟.. لم ألحظ هذا قط ...

انقض بعضهم على الزقاق فهرعت ألحق بهم، لأجد جرمينال تستند إلى جدار، وهي تمسك بالمحمول كأنها كانت تحاول طلب رقم .. رقم أمها في (يوتوبيا) طبعًا ... كانت ترتجف وعلى وجهها أعنف رعب رأيته في حياتي .. قطط قليلة أظهرت هذا الهلع وهي محاصرة في ركن زقاق ..

من فرط الانفعال راحت تهرش صدرها وشعرها في فظاظة وبحركة مضحكة، كأنها تقول لهم: أنا لست من تظنون .. أنا عامرة بالبراغيث !.. انظروا !!!

همس (جابر) في أذني:

—"أحمقان !... من الذي يبيع المحمول وبه خط ؟... هذا يسهل اقتفاء أثره !"

خرج الرجال من الزقاق وهم يمسكون بجرمينال.. وأقسم أحدهم أنها يجب أن تلقى عقابها هنا والآن وبطريقة الإيذاء المهينة التي يجيدها الرجال مع النساء.. لقد تحول هؤلاء القوم إلى مخلوقات أبعد ما تكون عن البشر .. قشرة المخ لم تعد تؤدي أي

دور معهم .. فقط يتحركون للجنس أو العنف .. الاغتصاب يمنح الشيئين معًا ..

قال (جابر) وهو يقف وسط هؤلاء المسعورين:

—"اسمعوا .. هذه الفتاة جائعة .. أكثر جوعًا منا .. كلكم سرق يومًا بسبب الجوع .. لقد أخذتم ما لكم فاتركوها .. "

ثم هوى على خدها بصفعة ألقت بها مترين إلى الوراء:

—"متسول يسرق متسولاً !.. كانت الحمقاء تحلم بالاتصال بأخيها الذي خطفوه في (يوتوبيا) !"

هنا فقط هدأ الجميع، وقال أحدهم وهو يرفع يده بما معناه (انتهى التجمع يا رجال):

—"لن يعود .. سوف يتسلون عليه ثم يقطعون يده ويلقون به في الصحراء، ثم يذهبون لأداء العمرة سائلين الله أن يغفر لهم .."

كانت جرمينال تبكي فعلاً، فازداد بكاؤها حرقة .. هذه جاءت في الوقت المناسب لأنهم تفرقوا وهم يضربون كفًا بكف ..

عندما ابتعد الجميع، دنا منها (جابر) ووجه لها ركلة في خصرها أسقطتها أرضًا، وقال:

—"يا بنت الـ (..)... أقسم بالله أن هذه آخر مرة أحاول حمايتكما .. قلت لكما أن تتصرفا على مسئوليتكما الخاصة لو لم تنفذا أوامري.."

* * *

تلمظ أحد الرجلين حالمًا بينما ظهر الشيء الذي كانوا ينقبون عنه.. بوابة حديدية صغيرة مدفونة تحت طبقات من الرمل، وقد

أزاحهـــا المدعـــو (حـــبارة) فرأينا درجات خشبية مثبتة في جدار رأسي ..

قال (جابر) وهو يصوب الكشاف إلى داخل هذه البئر:

ــ"انزل يا (حنفي) أنت و(نفيسة).."

* * *

نهضنا ومشينا وراء (جابر) في خجل ونحن نبصبص بأذيال وهمـــية .. لقد جاءت إذن اللحظة التي يصفعنا ويركلنا فيها واحد من هؤلاء .. صحيح أنه فعل ذلك كي لا يمزقنا آخرون، لكنني لا أقـــبل أن يمد أحد يده علي .. حتى (مراد) و(لارين) .. لقد رددت الصـــفعة لـــ (مراد) ذات مرة .. أصيبت (لارين) بنوبة هستيرية لأننـــي مددت يدي على أبي، فقلت لها إن هذا ليس تفضلاً منه .. أما وقد جاء بي للعالم فعليه أن يتحمل مسئولياته في شجاعة ..

قلت لجابر في اشمئزاز:

ــ"لو ظننت أننا سنبقى هنا للأبد فأنت مخطئ"

قال دون أن ينظر لي:

ــــ"لـــم أتوقع هذا .. كما قلت أنتما حران في أن تتصرفا أو تفـــرا لكنني أعرف ما سيحدث بعد دقيقة .. لو أردتما البقاء معي فعليكما الامتثال التام لكل ما أقول .. أنا من يضع الخطط ويختار اللحظة المناسبة .. "

أذناه مليئتان بالصماخ ..

أصابع قدمه متقرحة تطل من صندل حقير ..

نظارته ملحومة بالنار ..

عينه تالفة ..

غده أسود ..

أخته حيوان مصدور..

طعامه فاسد ..

كتبه بالية ..

أحلامه موءودة ..

أفكاره عتيقة ..

أظفاره مسودة ..

شعره مجعد معجون بالتراب ..

اسمه (جابر)...

قومه رعاع ..

أصدقاؤه حثالة ..

برغم هذا كله يمشي كالبشر ويتكلم كالبشر ..

بـــرغم هـــذا كلـــه لـــم يرتم عند قدمي متوسلاً لي كي أقطع ذراعه..

برغم هذا كله يصفع جرمينال ويهددنا ..

ما أحمق هؤلاء القوم وما أشد سذاجتهم !

* * * *

كانت هناك بائعة عجوز تضع كومة من الصحف .. صحف جديـــدة غيـــر مقروءة .. يبدو أنها تبيعها بالكيلو .. وثمن خمسة الكيلوجرامات بيضة كما قالت ..

ابــتاع منها بعض الصحف مقابل علبة ثقاب، ثم عاد لنا وهو يتصفح تلك الأشياء .. ناولنا واحدة منها وقال:

ـــ"هذه هي الصحافة الوحيدة الرائجة اليوم .. خليط عجيب مــريض مــن الجــنس والدين والخرافات ونظريات المؤامرة .. غــلاف الجــريدة لا يخلــو من عبارات (كشف المستور) و(في الغــرف المغلقة) و(الجن) و(الاغتصاب) .. الخ .. مع تلميح عام يوحـــي بأن كل النساء عاهرات وكل الرجال قوادون .. لابد من عدة صور عارية من المجلات الأجنبية، مع وضع علامة سوداء علـــى العينـــين، كـــأنهم لا يريدون فضح البريئات صاحبات هذه الصـــور .. وبـــرغم جـــو الانفلات الجنسي العام فإن العاهرات الفقيـــرات قبيحات كالأبالسة، لهذا يبتاع الشباب هذه الجرائد بحثًا عن فتيات حسناوات نظيفات لا يبصقن دمًا .. أما النوع الآخر من الصحافة .."

وفتح جريدة أخرى وأردف:

ـــ".. فهـــو عـــبارة عن رسائل حب موجهة للحكام .. هذه يصدرها قوم من يوتوبيا وسواها كانوا منا ثم سمح لهم الحكام بأن يعيشوا هناك، مفعمين بعرفان بالجميل وامتنان وتهيب يبلغ درجة العبادة .. هذه مشاعر تفوق مشاعر كلب وضع سيده أمامه خروفا مشويًا ينز منه الدهن .. لهذا يكتبون كلامًا لا يعني أي طرف ولا أحد يقرؤه إلا الحكام.. بالواقع لا يقرؤه الحكام لأنهم مطمئنون له. هـــذه المقـــالات نوع من بصبصة بذيل فكري. فيما مضى كانت هـــناك معارضة وكانوا يهتمون بمهاجمة هؤلاء الكتاب، ثم فهموا

أن تـــدخلهم في رسائلَ الحب هذه قلة ذوق .. كأنك تقرأ خطابات غير موجهة لك !"

ثم أضاف وهو يطوح بالجريدة:

ـــ"هذه الصحف سلعة ممتازة للف الأشياء... كما أنها حلت مشاكل غياب المياه !.. "

لم أكن ذا مزاج للمزاح، فقلت له:

ـ"ماذا تنوي عمله معنا ؟"

ـ"سأرجعكما إلى (يوتوبيا) طبعًا .. لا نية لي في قتلكما .."

ـ"وكيف ؟"

نظر لي في غموض ولم يتكلم ..

الجزء الرابع

الفريسة

-1-

قرنيتي الحبيبة .. وحلم ما بعد الجنس ...

أعرف أنني سأموت بعد يوم واحد. لا أكثر فلا تقل العكس .. لا تكـرر هـذا الهـراء وإلا طعنـتك بمطواتي. دعني أحلم مرة أخيرة..

كـنت أكـرههما كالصراصير . من الجميل أن تكره بصدق وحـرارة. منذ دهور لم أكره شيئًا بهذا الصدق .. كل شيء ألقاه بعاطفـة اشمئزاز عميقة لكن لا كراهية. أنت لا تكره البصاق .. فقط تشمئز منه ..

من الجميل أن تكره ...

برغم كراهيتي تلك – وربما من أجلها – لا أنوي قتلهما ..

هما تحت رحمتي تمامًا ولو فتحت فمي فلن يطول الأمر قبل أن أراهمـا قطعًا من اللحم المفروم تأكلها الكلاب لو كانت هناك كلاب.

لكني بالفعل لا أريد دمًا .. لا أريد قتلى ..

هـذه هـي النقطة التي تحدد كل شيء .. الدليل الوحيد الذي يخبرنـي أننـي ما زلت آدميًا ولم أتحول إلى ضبع. إنني في هذا

أتفوق عليهما .. أتفوق على أهلي وجيراني .. أتفوق على ما كنته أمس ..

لا أريد دمًا .. لا أريد قتلى ..

الأهم أن كل لحظة تشعرني بأن وجوه التشابه بيننا قوية جدًا

كلانا هنا وهناك نعشق العنف ..

كلانا هنا وهناك نحب المخدرات ..

كلانا هنا وهناك نرى أفلام الاغتصاب في نهم ..

كلانا هنا وهناك نتكلم عن الدين طيلة الوقت ..

هناك يتعاطون المخدرات ليفروا من الملل ..

هناك يحترفون الدين لأنهم يخشون أن يضيع هذا كله، وهم لا يعرفون لماذا ولا كيف استحقوه ...

هنا نتعاطى المخدرات لننسى عذاب اللحظة ..

هنا نحترف الدين لأننا لا نطيق أن تكون معاناتنا هباء بلا ثمن .. العقل البشري لا يتحمل فكرة مروعة كهذه وإلا جن ...

لهذا لا أريد دمًا .. لا أريد قتلى ...

ولكن كيف أفعل هذا بينما (سمية) تزوم كضبع غاضب ؟

* * *

الشخصية المصرية قد لاقت الكثير من المرمطة في المائة عام الأخيرة حتى صارت كزوجة عاملها زوجها بتوحش عدة أعوام، من ثم أصبحت هي ذاتها أقرب إلى الوحشية والشراسة. وكلما زاد الجهل قلت سيطرة قشرة المخ على السلوك، وهذا يجعل الجرائم التي ترتكبها الطبقات الدنيا حيوانية بالمعنى الحرفي

للكلمة ..وفي النهاية يقف القاتل ناظرًا لعدسات الصحافة النهمة بعينين غبيتين زائغتين ويكتفي بترديد: (أصل الشيطان وزّني)..

* * *

(سمية) جاءت في الخامسة عصرًا إلى كوخي ..

كانت ثملة أو هذا ما قدرته من مشيتها المترنحة ولسانها الثقيل. جلست القرفصاء على الباب مباعدة ساقيها لتتفادى بركة ماء آسن صغيرة هناك، وراحت تهرش شعرها بعنف ...

قالت وهي تنظر لي بعينيها القاسيتين الصغيرتين:

ـ"أنت كاذب بن كاذب .."

كنت أعرف ما تريد قوله، لكني تظاهرت بالغباء وسألتها عما هنالك . فقالت:

ـ"أنت تعرف أن الفتى ضربني على عنقي .. بعدها لم أشعر بشيء .. لكنني أعرف جيدًا أنه ضربني ... أنت كذاب بن كذاب.. قلت إنني سقطت دون أن يلمسني، ولولاك لمزقه الرجال.."

قلت وأنا أجلس القرفصاء بقربها:

ـ"أنا رأيتك تسقطين ولم أر أنه ضربك كما تقولين"

كانت غبية حيوانية .. لن اندهش لو قضت حاجتها وهي جالسة حيث هي... حيوان بليد يجلس هناك على عتبة داري ويهرش رأسه بلا توقف ..

ـ"لم استطع أن أعمل يومين كاملين .. أحيانًا أشعر كأنه أطار من عقلي برجين .. عمي يضربني بلا انقطاع .. "

ثم قالت في حزم ووجهها القبيح يتقلص:

ـــــ"سوف أخبر عمي أن الرجل ضربني .. السرجاني سوف يأخذ بثأر ابنة أخيه .. "

نعـــم .. السرجاني لا يرحم من يتلف بضاعته .. أنا أعرف هذا.. كله إلا عدة الشغل .. السرجاني يغار على (عزة) .. يحمل مطـــواة قـــرن غـــزال يمكـــنه أن يرشـــقها في زجاج نظارتي. (السرجاني) الضخم يشتهي (عزة) .. السرجاني أخذ قرنيتي مني

ملت على سمية وقلت همسًا:

ـــــ"ســـمية.. أنا أعرف هذا الفتى .. بيني وبينك هو صاحب مزاج خاص .. هناك رجال لا تكتمل لذتهم إلا بضرب الأنثى .. "

قالت في دهشة:

ـــــ"كـــل الرجال لا تكتمل لذتهم إلا بضرب الأنثى، والسبب أنهم أنجاس وأولاد (...)"

ـــــ"لـــيس كـــل الضـــرب سواء .. الضرب الذي تتلقينه من الزبائن يختلف عن تلك الضربة القوية على جذور العنق .. الفتى صـــاحب مـــزاج يحب أن يضرب الفتاة حتى تفقد وعيها وتصير عجينة لينة بين يديه .. وقد صارحني بهذا، وهو مستعد أن يدفع.. والغاوي ينقط بطاقيته"

وأجريت حسبة صغيرة على أصابعي:

ـــــ"أنـــت لـــم تعملي يومين .. لنقل إن هذا معناه مائتين في اثنـــين.. أربعمائة جنيه كاملة .. سوف نضيف مائة من أجل الألم

الـــذي تشعرين به .. إذن هي خمسمائة جنيهًا لك وحدك .. بما أن عمك لن يعرف شيئًا فلن يأخذ شيئًا .."

ضحكت ضحكة رقيعة متوحشة .. وقالت:

ـ" خمسمائة جنيهًا لي وحدي ؟"

ـ"نعم ... "

ـ"وأنت ؟"

ــــ"أنا مستفيد طبعًا .. لهذا أدافع عنه .. من واجبي أن أوفر لـــه مـــزاجه مـــا دام يدفـــع .. إنه – بيني وبينك – يسرق سكان يوتوبيا. لهذا معه مال كثير ومعه فلوجستين .. "

ـ"فلوك ؟"

قالتها بنظرة حالمة تسبح في سموات التأمل الكيميائي..

ـ"نعم .. فلوك .. تصوري هذا ؟"

ـ"هيء هيء هيء ..."

تركتها حيث هي وهرعت إلى داخل الكوخ .

كان الفتى جالسًا على الأرض ينظر إلى السقف شارد الذهن، بينما الفتاة تجلس جواره وقد أراحت رأسها على كتفه. قلت له في عصبية:

ـ"اسمع .. هل معك فلوجستين ؟"

ـ"أنت تعرف أنك أخذت كل ما كان معي .."

ـ"هل معك نقود ؟"

قالت الفتاة وهي تعبث في حذائها:

ـ"معي .. كم تريد ؟"

—"هاتي خمسمائة جنيه.. بسرعة !"

ناولتني ورقة نقد فئة خمسمائة، فكومتها في يدي وخرجت إلى حيث كانت سمية جالسة هناك القرفصاء تردد بلا توقف كأنه لم يكن هناك أي حوار قبل هذا:

—"هو ضربني .. ضربني .. وأنت كذبت .. لولاك لمزقه السرجاني"

دسست الورقة في يدها وقلت:

—"هي لك وحدك .. قلت لك إن الفتى صاحب مزاج .. فقط لا تقحمي السرجاني في الموضوع. الفتى قد يطلب منك خدمة أخرى اليوم أو غدًا وسيدفع ما تريدين"

—"رقبتي !"

وتحسست عنقها، وبدا أن هذه الدعابة السخيفة السطحية راقت لها، فراحت تضحك بلا انقطاع, ثم أفرغت أنفها على الأرض وابتعدت ....

لا تنكر أنني أجيد معالجة الأمور الصعبة ... سوف تعود لتطلب المزيد لأن الابتزاز لعبة من تعفنت روحه، لكني آمل أن يكون الفتى وفتاته قد عادا لعالمهما قبل ذلك ..

-2-

في أوائل القرن الحادي والعشرين، وفي آخر إحصاء أمكن عمله، كان هناك 35 مليون مصري يعيشون تحت خط الفقر، وكذا كانت البطالة التي وصلت إلي أعلي معدلاتها العالمية (10 ملايين عاطل).. لاحظ أن 78% من مرتكبي الاغتصاب عاطلون.. أي أن جريمة الاغتصاب هي في الحقيقة اغتصاب للمجتمع. دعك بالطبع من ذوبان الطبقة الوسطى التي تلعب في أي مجتمع دور قضبان الجرافيت في المفاعلات الذرية .. إنها تبطئ التفاعل ولولاها لانفجر المفاعل .. مجتمع بلا طبقة وسطى هو مجتمع مؤهل للانفجار ..

وهذا هو ما حدث بالضبط، لكن الانفجار لم يقض على الطبقة الثرية .. لقد نسف ما تبقى من الطبقة الوسطى، وتحول المجتمع إلى قطبين وشعبين ..

فقط أدركت الطبقة الثرية أنه لا حياة لها ما لم تنعزل بالكامل، وبنفس منطق قلاع القرون الوسطى عندما كان الحكام يقيمون الحفلات الماجنة بينما الطاعون يفتك بمحيط الفقر الخارجي. (قناع الموت الأحمر).. أين قرأت قصة تحمل هذا العنوان ومتى؟ ومن كان كاتبها ؟.. لا أذكر ..

قــرأت كثيرًا جدًا .. قرأت كل شيء .. حتى أذابت الحروف بعضـــها ... وحتى صرت لا انتمي للأغيار ولا انتمي ليوتوبيا .. فـــي كـــل موضع أنا غريب مختلف شاذ أحمق غير متكيف غير مندمج...

هل كان في وسع أحدهم منع هذا ؟

لا أعـــرف .. أنا لست اقتصاديًا ولا سياسيًا .. دعك من أنني لم أتلق تعليمًا منتظمًا منذ دخلت الجامعة المجانية ..

فقــط كانــت هــناك مؤشرات مخيفة وكان على الجميع أن يتــنبهوا لها.. عندما تشم رائحة الدخان ولا تنذر من حولك فأنت بشكل ما ساهمت في إشعال الحريق ..

عــندما أفحص صحف العشر السنوات الأولى من القرن أشم الكثير جدًا من الدخان .. أوراق الصحف تفوح برائحة الدخان .. فلماذا لم يفعل أحد شيئًا ؟

لأن الجميع تواطأ علينا ..

الجميع تواطأ علي أنا كي أعيش بلا مأوى ..

بلا مأكل ..

بلا مشرب ..

بلا ثياب ..

بلا سقف ..

بلا حبيبة ..

بلا كرامة ..

بلا أسرة (باستثناء صفية)..

بلا ثلاجة ..

بلا جهاز هاتف ..

بلا جهاز تلفزيون ..

بلا ربطة عنق ..

بلا أصدقاء ..

بلا حذاء ..

بلا سراويل ..

بلا فلوجستين ..

بلا واق ذكري ..

بلا أقراص للصداع...

بلا مؤشر ليزر ..

وأخيرًا بلا أحلام ..

يــومًا مـــا سأموت ولسوف أعود لهم في صورة عفريت أو شـــبح ولســـوف اجعل حياتهم جحيمًا .. لن يكون أحدهم في مأمن مهما توارى بعيدًا عني ..

لكني لن أقتل هذين ...

* * *

الفتى كان جالسًا لا يعمل شيئًا ..

قلت له بلهجة آمرة:

ـــــ"أنت هنا تأكل من طعامي وتنام تحت سقفي، فلابد من أن تجرب أن تجد قوت يومك .."

نظر لي في تحد . يتمنى ان يمزقني لكنه تحت رحمتي بالكامل، لهذا يصمت .. لو كان يملك شيئا واحدًا محترمًا فهو الذكاء. قال لي:

ـ"معنا بعض المال .. فهل هذا ما تريد ؟"

قلت في اشمئزاز:

ـ"لا أريد شيئًا من مالك .. أريد أن تساعدني.."

كان هناك الكثير من العمل في شبكة مترو الأنفاق، لكني لن أطلعه على شيء منها. لو عاد هذان لعالمهما فلا أريد أن أجد السُلطات تقوم بسد شبكة المترو بالكامل بالخرسانة .. سيكون معنى هذا أن نختنق ...

تلك الشبكة هي عالمي الخاص الذي أعرف كل شبر منه وأصير ملكًا ...

قلت لـ (صفية) همسًا وأنا أناولها القنينة:

ـ"كما قلت لك .. لا تكثري منه ولا تجربيه"

وغادرت الكوخ مع الفتى ماشين وسط أطنان المخلفات وبقايا المجاري، وسط الصبية الذين يتشاجرون ويقذفون بعضهم بالمخلفات ...

مشينا نحو ربع ساعة وسط بقايا المدينة هذه، وأخيرًا وصلنا لساحة المعلم (طه) التي تحيط بها السياج. على الباب يلقاك ذلك البلطجي الذي لا أعرف دوره بالضبط، وهو غالبًا يرهب القادمين لا أكثر. يقدم لكل منا مدية . في الداخل مساحة من الأرض تقرب

من مساحة ميدان صغير، وهناك نحو خمسين من أمثالنا يعملون بلا توقف.

هناك كومة في الركن من الدواجن النافقة . كومة ارتفاعها خمسة أمتار تقريبًا .. لا رائحة لأنها نفقت اليوم فقط في مزرعة ما خارج القاهرة.

على الكومة الثانية تقف مجموعة من النسوة يقمن بإزالة الريش .. هناك قيزانات ماء ساخن يتصاعد منها البخار. يجب الحذر في هذا الجزء بالذات بسبب الحروق.

ترتفع الكومة الثالثة من جثث الدجاج العارية .. ترتفع في كل لحظة .. لو كان البشر دجاجًا لكان هذا المكان مقبرة جماعية ...

قلت للفتى وأنا أخرج مديتي:

ـ"تنظف أم تشفي ؟"

نظر لي في حيرة وقد تقلص وجهه اشمئزازًا فقلت مفسرًا:

ـ"أي تشق البطن وتخرج الأحشاء أم تقوم بتجريد العظام من اللحم ؟"

ـ"لن أستطيع أن أقوم بهذا ولا ذاك "

نظرت حولي لأتأكد من أن أحدًا لن يسمعني:

ـ"لا أحد يعيش هنا من دون عمل .. عمل قذر .. عمل حرام .. عمل غير قانوني .. ليكن ما يكون .. المهم أن تعمل .. لن أصرف عليك مليمًا بعد اللحظة ..'

قال في غيظ وقد أوشك على الانفجار:

ـ"تتحدث عن الإنفاق علي كأننا ننام في قصر ونستحم بماء الورد ونأكل نعامًا .. كم يكلفك هذا الفول الحامض ونومنا في عشة دجاج ؟"

صه !... رفعت إصبعي إلى شفتي منذرًا:

ـ"لو سمعوا لهجتك المدللة هذه ومخارج حروفك لسلخوك بدلاً من الدجاج .. انت تفضح نفسك في كل لحظة !"

هز رأسه في عناد البغال ثم اتجه إلى الكومة المجاورة التي يعمل عليها أربعة .. كومة (تشفية) الدجاج .. بالمدية ينزع اللحم عن العظام وهو يضع الدجاجة كاملة على حجر أملس .. يلقي باللحم على كومة مجاورة وبالعظام على كومة أخرى ..

خط تجميع لابد أنه كان سيروق للخواجة (فورد) الذي صدعونا بالكلام عن عبقريته في ابتكار خطوط تجميع السيارات في القرن الماضي ..

قلت له وأنا امسك بالدجاجة الأولى وأشق بطنها:

ـ"هاك ... عندما ننتهي سوف نخرج من البوابة الخلفية وسوف نأخذ نصيبنا .. نحو دجاجة لكل واحد منا .. من أين تحسبنا نحصل على اللحم ؟.. هذا الحفل لا يقام يوميًا .. هناك أيام يكتفون فيها فلا يسمح لنا بالعمل أصلاً"

قال في اشمئزاز:

ـ"دجاج ميت ؟"

أطلقت صوتًا قبيحًا من حلقي وقلت:

ـ"هل حقًا يبالي قومك بالذبح الحلال أيها النصاب ؟"

ثم قلت لنفسي إنهم على الأرجح يبالون .. يدققون جدًا في ذبح الدجاج لكنهم لا يدققون بصدد ذبحنا .. لا يسمّون علينا ولا يحسنون قطع الوريد.

راح يؤدي عمله معذبًا مشمئزًا تعسًا كاسف البال حانقًا مغتاظًا ..

لا بأس .. بعض أنواع الانتقام لا تتضمن القتل وبرغم هذا هي ممتعة شهية ..

جرح نفسه ألف مرة ، وصار الدم الذي يغطي يده خليطًا من دم الدجاج ودمه. دعه يجرب .. دعه يتعلم .. دعه يتألم ...

كان هناك فنان عالمي اسمه شارلي شابلن.. أنا أعرفه ولا ادري إن كنت مثلي أم لا . ذلك الفنان صنع شهرته من إظهار بطله الفقير الضعيف ينتصر على الأثرياء وعلى رجال الشرطة.

قال ذلك الفنان ذات مرة: يلقى الأثرياء في أفلامي شر مصير .. يتعثرون وينزلقون فوق قشور الموز، لأن أغلب الناس يحبون أن يروا الأغنياء المتغطرسين يفقدون كرامتهم . السبب أن معظم الناس في الحقيقة فقراء ..

تباطأ الفتى أكثر من مرة فقلت منذرًا:

ـ"إنهم يراقبون .. لو رأوك تتكاسل لطردوك شر طردة ولن تأخذ شيئًا .. "

وهكذا ظللنا نعمل نحو الساعة .. لكني لم أكن مستعدًا لقضاء اليوم كله هنا ..

-3-

عندما ازداد الزحام وكثرت الوجوه، لم أعد أرى الفتى ..
ربما كان هناك جواري لكنه غارق في الدم والعرق فلا يبدو منه شيء ..

هـنا فقـط أمكنني أن أهرع إلى الباب الخلفي للساحة، وكان (خليل) يقف عليها كالعادة .. نظر لي في دهشة وقال:

ـ"مرة أخرى ؟.. لن أحميك للأبد .."

قلـت وأنا أناوله المدية الدامية (لأنه من الممنوع أن تعود بها لدارك):

ـ"بل تفعل .. إن هي إلا نصف ساعة .."

ـ"فلوك "

ـ"لك هذا .. أنا أفي بوعودي.."

هكـذا أفسح لي الطريق كي أمر. هو يعرف إنني سأعود من الطريق ذاته ولسوف يسمح لي بالدخول والعمل بعض الوقت قبل أن أتقاضى أجري كاملاً. إنه يقف هنا لمنع هذا الشيء بالذات ...

أركض ركضًا هذه المرة لذا بلغت داري خلال ربع ساعة .. لن أحتاج إلا إلى عشر دقائق ثم أعود في ربع ساعة آخر ..

كانت صفية بالداخل بانتظاري..

غسـلت وجهي ويدي بسرعة من آثار دم الدجاج. قد أتحمل القذارة لكني لا أتحمل الدم أبدًا.

فـتاة يوتوبيا فقدت وعيها طبعًا بسبب مزيج دواء السعال مع أبـي صليبة مع الأفيون الذي شربته من يد صفية. لا أحد يتحمل هـذا المـزيج اللعين ما لم يكن قد جربه خمس مرات من قبل. لم تكـن جثة هامدة فأنا لا أرغب في مضاجعة جثة، لكنها كانت في حالة من الاستسلام التام الناعس.

كانت صفية الوفية قد فعلت كما أمرتها .. غسلت وجه الفتاة المتسخ وقدميها القذرتين اللتين صارتا تشبهان أقدام نسائنا..

قلت لها وأنا ألهث بعد ركضي:

ـ"شكرًا يا صفية .. والآن انصرفي .. لن أستغرق أكثر من عشر دقائق"

مسحت بأناملها على شعر الفتاة الناعم وقالت:

ـ"خـذ راحـتك .. إن جلدها أملس كجلد الأطفال .. أنت تستحق الراحة .. شقيان .. تحتاج إلى شعر نظيف وجلد أملس .. خذ راحتك ... فليغسل جمالها أدران روحك "

الغريب أنها كانت متأثرة من أجلي، رطبة العينين، ومسلكها أقـرب إلـى حـنان الأمهات .. بدا لي كأنها ترغب في الانتظار لتـرى مـا سأفعله ولتطمئن على أنني سعيد، لكني لا أسمح بتاتًا بشيء كهذا .. صفية سوف تظل نظيفة .. تعرف لكنها لا تسمع. تسمع لكنها لا ترى .. ترى لكنها لا تلمس ..

غادرت (صفية) المكان فانفردت وحدي بفتاة يوتوبيا ..

عاجزة .. غائبة عن الوعي .. لا تقدر على عمل شيء ..

إنه النصر !..

هذا هو النصر الوحيد الذي أستطيع تحقيقه .. قهر هذه الفتاة ليس قهر أنثى بل هو قهر طبقة بأكملها. قهر ظروف ...

سوف ترى على يدي ما لم تره من قبل. أليس فتيان يوتوبيا فتيات لهن شوارب ؟.. ألسنا نحن الفحول الذين ترتجف نساؤهم خوفًا منا واشتهاء لنا ؟.. ألا تتمنى الواحدة منهن بين ذراعي زوجها أو عشيقها أن يغتصبها أحدنا ؟.. ألسنا نحن كابوس رجال يوتوبيا وهمهم المقيم ؟.. أليست الرجولة قمحًا ينضج في شمس المعاناة اليومية ؟

الفتى ملطخ بالدماء في ساحة المعلم طه وسط الدجاج، وأنثاه هنا تحت رحمتي ..

كنت أرتجف من هول الفكرة. توارت (عزة) .. (عواطف).. (نجاة).. توارى حلم ما بعد الجنس ..

انتقامي سوف يكون مريعًا .. انتقامي سيكون جديرًا بأن يكون انتقامًا ..

سوف ......

سوف ...

ماذا يحدث لي ؟

كلما نظرت لوجهها لم أر إلا وجه صفية الأسمر. تلاشت فتاة يوتوبيا المدللة فلم أعد أرى إلا وجه صفية القسيم المفعم بالبؤس برغم هذا ..

لقد انكمشت رغبتي تمامًا، وصار جسدي قطعة من الثلج.

فقط رحت أضرب خديها في غلظة وهي تئن ولا تفتح عينيها. أهزها من كتفيها في عنف .. أجذب خصلة شعر هنا وهنا ثم لا شيء .. هذا كل ما لدي ...

لا أستطيع ولا أرغب ....

ماذا دهاك ؟... هل سلطة يوتوبيا عليك مطلقة إلى هذا الحد؟.. هل صارت يوتوبيا تسيطر على هرموناتك وغدتك النخامية وغدتك الكظرية ونسيجك الكهفي وجهازك السبمثاوي؟... هل إلى هذا الحد تغلغلت فيك ؟

أهي سيطرة يوتوبيا، أم هي سلطة ضمير كاسحة تجعلك ترى كل فتاة هشة معدومة الحيلة كأنها صفية أخرى ؟

لن تعرف .. لن تعرف أبدًا ..

فقط أنت موقن من شيء واحد: فلتنم هذه الفتاة في سلام، ولتعد أنت إلى المذبح لتواصل انتزاع أحشاء الدجاج...

عندما عدت إلى ساحة المعلم طه لم أبحث عن الفتى ..

فليذهب للجحيم .. رحت أواصل عملي المرهق في تنظيف أحشاء الدجاج، وبعد ساعات تلاشت الكومة الأولى والثانية والثالثة والرابعة ولم تعد هناك سوى بضعة أكوام يتم نقلها إلى الأسواق ..

بمجرد أن تنتهي كومتك تتجه للباب الخلفي للساحة حيث يقف (خليل). يناول كل من يخرج نصيبه من الدجاج .. مجموعة أشلاء أعتقد أنها تكفي لعمل دجاجة كاملة.

مشـيت بعض خطوات فوجدت الفتى يقف ينتظرني وفي يده نصيبه.

كـان غارقًـا في الدم والعرق.. بعض الدم كان دمه هو .. ناولنـي مـا فـي يده بطريقة تقول (ها هو ذا ما أردته .. فخذه واخرس)..

قلت له محاولاً أن يخرج صوتي مزاحًا:

ـ"اليوم تأكل من عمل يدك للمرة الأولى"

قال من بين أسنانه:

ـــ"أولا كـف عـن الدروس الأخلاقية فقد سمعت منها ما يكفينـي.. ثانيًا أنا لن أذوق هذا الشيء .. لقد عافت نفسي الدجاج للأبد"

وهكذا عدنا صامتين إلى بيتي ..

لـن يعـرف ما حدث، لأن الفتاة ستكون (مسطولة) ولسوف تعتقد أن أي شيء رأته أو شعرت به أضغاث أحلام..

لا أريـده أن يعـرف .. ليس لأنني أخشاه .. بل أخشى أن يعرف أنني عجزت عن إيذائه عندما كان هذا في وسعي ..

يبدو إنني عاجز عن قتلهما كذلك ..

بونابـرت وقـف يومًا أمام الجنود الذين جاءوا للقبض عليه وفتح صدره وقال: أنا هو إمبراطوركم فاقتلوني !.. لكن الجند لم يفعلـوا .. هيبة الإمبراطور جعلتهم يجثون على ركبهم أمامه وهم يبكون .

لكن الفتى ليس بونابرت .. تبًا !... إنه مجرد حيوان شهواني مـن يوتوبـيا لا يملك أي قدر من الهيبة .. المشكلة أن يكون قد خلـق حاجـزًا نفسـيًا من العبودية داخلي .. المشكلة أن أقتنع أنا نفسي بأنه أفضل وأروع وأكمل وربما أتقى..

أنا عاجز عن قتلهما ..

السؤال الوحيد هو : هل هذا لأن يوتوبيا أقوى مني، أم لأنني أقوى مني ؟

-4-

احنا شعبين ..شعبين ..شعبين
شوف الأول فين والتانى فين؟
وآدى الخط ما بين الاتنين بيفوت
انتم بعتوا الأرض بفاسها.. بناسها
فى ميدان الدنيا فكيتوا لباسها
بانت وش وضهر...
بطن وصدر..
والريحه سبقت طلعة أنفاسها
واحنا ولاد الكلب الشعب
احنا بتوع الأجمل وطريقه الصعب
والضرب ببوز الجزمة وبسن الكعب
والموت فى الحرب..

عبد الرحمن الابنودى

* * *

السرجاني هو أول من فاتحني في الأمر.

أنـــا لا أحـــب السرجاني فهو من كلفني قرنيتي. صحيح أن الحـــياة اســـتمرت بعد ذلك لأن الخطوة التالية هي أن يفتك أحدنا

بالآخـــر.. وأنا لن اقدر على قتله .. إذن الخطوة التالية هي موتي أنا .. لهذا توقفت الأمور عند هذا الحد ..

صحيح .. كل هذا صحيح لكنك لا تستطيع أن تحب من أتلف قـــرنيتك مهما حاولت. هو كذلك لا يحبني لأن (عزة) كانت تميل لي.

الســـرجاني هـــو من جاء لي حيث كنت جالسًا خارج الدار أدخن البانجو جالسًا القرفصاء أفكر.

غرس السنجة التي يحملها في الطين الجاف، وجلس جواري وقال وهو يتناول اللفافة من يدي بلا اكتراث:

ــ"صباح الطعامة يا أبو جابر"

ونفث سحابة كثيفة من الدخان، وراح يتأمل الرماد المعلق في شكل قمع طويل. وقال كأنه رجل مهموم بعظائم الأمور:

ـــــ"هـــذه الفـــتاة التي تعيش في بيتك .. لا أتكلم عن صفية طبعًا.. صفية على رأسنا من فوق .."

ــ"مالها ؟"

قلتها في اشمئزاز وأنا أعرف ما سيقول حرفيًا ..

قال وهو يعيد لي اللفافة محاذرًا أن يسقط الرماد:

ــ"تلزمك ؟"

ــ"ولو لم تكن ؟"

ــ"اليد البطالة نجسة "

ــ"تكلم بوضوح يا سرجاني"

الموضـــوع مهم فلا مجال لهذه اللغة التلغرافية التي نستعملها منذ عشر سنوات .. لغة من رأى كل شيء ولم يعد يدهشه شيء.. الآن مجال الشرح والتطويل ..

قال لي بهدوء:

ـ"يمكن لهذه الفتاة أن تجلب لك الكثير من المال بدلاً من أن تكـــون عبئًا عليك. الصنف شحيح وقليل والموجود رديء .. أنت ترى وجه سمية البشع الذي يذكرك بالأبالسة .. هذه الفتاة ستكون مكسبًا لنا معًا.."

قلت في ضيق:

ـ"أنت أخذت عزة .. ألا تكفيك ؟"

ــــ"هذه مهنة شاقة .. مهنة قذرة تبلي ملامح الأنثى وجسدها تمامًا .. لابد من التجديد"

ابتســمت فــي سري .. لو أردت انتقامًا فأي انتقام أبشع من هــذا؟.. فتاة يوتوبيا تجد نفسها في هذا الوسط بين هؤلاء. لكني لا أريــد ذلك .. سمه انتصارًا على نفسي أو انتصار يوتوبيا علي .. فقط أعرف أنني سأحميهما ما دمت حيًا وما داما بيننا ..

قلت وأنا أناوله لفافة التبغ:

ـ"هي لا تحب هذا الكار .. هي حرة يا أخي.."

ـ"كما تحب .."

ثم فكر قليلا وأضاف التهديد الذي عرفت أنه آت لا محالة:

ــــ"بيني وبينك .. نحن لا نعرف من هذان حقًا .. أنت قلت كلامًــا وألقــيت لنا ببعض الفلوك لنتشاجر عليه كالكلاب. سمية

تحكي قصة مختلفة .."هذان يبدو عليهما الثراء ولتقطع ذراعي إن كانا عاشا يومًا واحدًا من الجوع قبل قدومهما .. من أين جاءا بكل هذا الفلوك ؟... أنت تعرف كما أعرف أن هذين من يوتوبيا .. لا تقــل لي إنهما كانا يعملان هناك بل هما من أصحاب الدار .. أيام كانــت هــناك كلاب كان عندي كلب يحرسني ويأكل من طعامي ويــنام تحت سقف داري، لكن دعني أؤكد لك أنه لم يبد مثلي في أيــة لحظــة !.. عاش كلبًا ومات كلبًا .. الغبي ابن الغبي هو من يخلــط بــين الكلــب وصاحبه. هذان ليسا كلبين .. هذان يملكان الكلاب .. فلماذا جاءا هنا ؟.. يمكننا أن نتخيل !.. "

قلت دون أن أنظر له:

ـ"قصّرْ !"

ــــ"سأقصــر .. أنت تعمل مع (عبد الظاهر).. لو عرف أن اثنــين من يوتوبيا يعيشان تحت سقف بيتك فماذا سيفعل ؟.. وماذا عــن (بيومي) ورجاله ؟.. الكل سوف يرقص طربًا وسوف تأتي المنطقة كلها إلى دارك لأخذ حقوقها .. صدقني يا صاحبي لا أحد يــريد لك الأذى، ولا أحد يقبل أن تمس شعرة من صفية .. صفية عزيزة علي كأنها .. كأنها سمية ابنة المرحوم أخي .."

قلت في غيظ ساخر:

ـ"نعم .. أنت تحرس سمية وترعاها جيدًا فعلاً .. كلنا يعرف هذا"

نظر لي ولم يتكلم، وانصرف دون أن يعيد لي اللفافة ..

* * *

لم أكن أحمل هم (بيومي).. كنت احمل هم (عبد الظاهر)..
بيومي وشلته يمثلون الأعداء، وهم خطر في كل وقت وكل زمن، بينما (عبد الظاهر) وشلته هم مصدر حمايتي ونفوذي، ولو انقلبوا علي فأنا ضائع ..

عبد الظاهر كان هناك في أنفاق المترو يناقش خطة البايرول للمرة الألف .. منذ أعوام وهو لا يكف عن مناقشة هذه الفكرة وأنا أقول له إنه مجنون ..

ـ"هؤلاء الناس قد يمزحون في كل شيء لكن لا مزاح في البايرول"

ـ"هذا ما يجعل الخطة ممتازة، وتضعنا في موقف قوي حقيقي"

قلت له ساخرًا:

ـ"إن المخدرات أطارت صوابك يا بن الـ (.....) .. تعتقد أنك تكافح الإنجليز في واحد من تلك الأفلام القديمة الأبيض والأسود .. دعك من هذا الهراء وفكر في كيفية العثور على كلب جديد"

عبد الظاهر كان بلطجيًا لكنه (جدع) حار الدماء .. ليس مجرد ضبع تثيره رائحة الدم مثل بيومي .. لهذا فضلت أن أكون معه من البداية ..

كان بعضنا يجلس فوق عربة مترو يلعب (البرغوتة) والبعض جالس في ركن من المحطة يشم الكلة .. إنها الظهيرة لكن أنفاق المترو ليل دائم أبدي .. ربما لهذا تشعرنا بالألفة.

جميل أن تعرف أن كل هؤلاء معك .. يمكنهم أن يهبوا لنصرتك لو تعرضت للخطر .. لهذا أعرف أن صفية سوف تتزوج واحدًا من هؤلاء. لا سبيل لها للحياة غير هذا ....
مخيف بما يفوق الوصف أن ينقلبوا عليك ..

قال لي (عبد الظاهر) وهو يدقق في وجهي بعينيه الواسعتين العسليتين اللتين توحيان بالجنون:

ـ"هناك كلام كثير عنك يا صاحبي في الآونة الأخيرة .. "

رفعت وجهي في توتر ونظرت لوجهه المترقرق في ضوء المشاعل..

ماذا ؟..

قال في ثبات:

ـ"أولاً أنت فررت من مشاجرتنا الأخيرة مع بيومي .."

ـ"أنت تعرف أنني ضعيف ولا قبل لي بالانتصار على هؤلاء .. كنتم تنهزمون وكان بوسعي أن أبقى، لكنك كنت سترثيني الآن باعتباري شهيد الجدعنة .. هل كنت تفضل هذا ؟.. على الأقل أنا هنا حي أرزق وأتلقى اللوم منك.. لا تنس أن سليمان مات فلم تستطيعوا الدفاع عنه .. "

لم تكن هي أول مرة أفر فيها ولن تكون الأخيرة فلماذا يهتم بالأمر ؟

قال من جديد:

ـ"وهذان اللذان في دارك ؟.. الكلام كثير عنهما .. يقولون إنهما من يوتوبيا وإنك تنكر هذا في إصرار .. ما الذي تدبره ؟"

لا توجد أسرار في هذه المنطقة ... هذا واضح ..

أخشى ما أخشاه يحدث الآن ..

فتحت كفي وأصابعي ورحت أقسم:

ـــ"والله العظيم .. والله العظيم .. أنا لا أعرف من أين جاء هذان .. فقط كانوا سيفتكون بهما وأنا لم ...."

قال مقاطعًا:

ـ"كف عن القسم .. كل الناس تقسم طيلة الوقت .. اسمع .. نحن نريدهما .. سوف نعرف أصلهما وفصلهما .. لو اتضح أنهما من يوتوبيا فلسوف نلعب بهما لعبًا ممتازًا .. لن يجدهما الذباب الأزرق، ولربما ساومنا عليهما .. لو كانا مسكينين مثلنا لوجدنا لهما عملاً وحياة .."

رآني مترددًا فقال في حزم:

ـ"جابر .. فكر جيدًا .. لا تخسر كل شيء من أجل كلبين .. لا أعرف أهميتهما لك لكنهما بالتأكيد ليسا أكثر قيمة من صفية !"

ثم نهض وبصوته الجهوري صاح في الرجال المتفرقين في المحطة:

ـ"هلموا !.. أريد هذه المشاعل في مكان واحد .. أحد رجال بيومي هنا في الأنفاق ومعه بانجو .. من منكم يأتيني به ويظفر بنصف ما معه ؟"

عندما غادرت المحطة كنت أعرف يقينًا أنني يجب أن أتصرف الليلة ..

لقد اشتمت أنوف كثيرة الرائحة، وتجمع الذباب حول العسل لو كان ما آويه في داري عسلا.

لو أردت لهما الحياة فليفرا الليلة ..

فليفرا فلا يقع علي لوم سوى لوم الغفلة والغباء ..

الليلة قبل أن يحدث شيء آخر ..

* * *

قلت لهما إنهما سيرحلان الليلة، وخرجت أدبر أمري .. هناك الكثير من الترتيبات يجب أن تتم . عدت لهم بعد ساعتين وكانا مستعدين كما نصحتهما. أحكما مسح وجهيهما بالقذارة وثيابهما صارت أقذر .. الغريب أن صفية أختي بدت نظيفة لامعة براقة وإن لم تبد مسرورة جدًا، حتى خطر لي أنها ربما تميل للفتى ..

لا .. ربما هي تميل للفتاة باعتبارهما من السن ذاتها تقريبًا..

سوف تفقد الصديقة الوحيدة التي ظفرت بها في حياتها ..

قرنيتي الحبيبة .. وحلم ما بعد الجنس ...

أعرف أنني سأموت الليلة فلا تضايقني من فضلك ..

دعني أمارس آخر لحظات لي في الحياة ..

دعني أجرب أن احلم ...

الجزء الخامس

الصياد

-1-

سوف نرحل هذه الليلة ..

(جابــر) اخبرنا بهذا .. قال إن الشكوك تتكاثر والذباب يحوم وعلامات الاستفهام تتكاثف والأقاويل تزداد و.. و ..... إلى آخر هذا الهراء ..

وسوف نرحل هذه الليلة ..

نرحل ؟

ربما إلى أعلى .. ربما إلى أسفل .. ربما إلى يوتوبيا ..

لــو لــم نتحــرك في اتجاه عمودي فهناك أمل في أن نظل أحياء..

سوف نرحل هذه الليلة ..

* * *

عند ساعات المساء الأولى قال لنا إن علينا أن نعد كل شيء. ســوف يتغيب ساعتين ثم يعود ليجدنا متأهبين. نعد كل شيء ؟.. هل يوجد معنا شيء نعده ؟. بالطبع لا.

لكن (صفية) قالت لنا إن الإعداد هنا يعني المزيد من القذارة .. أحضرت بعض الشحم الأسود وراحت بلمسات أستاذية تضيف القذارة على وجوهنا . أعطتنا ثيابًا أسوأ مما كان علينا ..

قلت لها وهي تمسح وجهي:

ـ"ماذا ستفعلين بصدد هذا الدرن ؟"

قالت كأن الأمر لا يعنيها:

ـ"سوف أتعاطى منقوع الأعشاب الذي تعده أم (عبير)، وأدفئ صدري، وفي النهاية سأموت وسط بركة دم .. هذا هو كل شيء .. لكن (جابر) لا يصدق هذا .. يعتقد أنني سأشفى"

ـ"هناك أدوية للدرن ..."

ـ"نعم .. وكلها عندكم .. ماذا تتوقع أن أفعل ؟"

أردت ان أكذب .. أقول لها إنني سأعود وسأجلب لها بعض الدواء من أبي .. أبي الذي لا يمكن تعاطي قرص أسبيرين في أي موضع من مصر إلا عن طريقه، لكني وجدت أن هذه أسخف كذبة ممكنة. يمكنني أن اترك لها تِذكارًا لكنه لن يكون علبة دواء.

لما أدارت صفية ظهرها لنا قلت لجرمينال همسًا:

ـ"اسمعي .. أريد أن تغادري الكوخ عشر دقائق.."

نظرت لي في حيرة ثم تقلص وجهها وهتفت مشمئزة:

ـ"هل تمزح ؟... هل هذا هو الوقت المناسب ؟.. "

ـ"لابد لي من تذكار . قلت لك إن لها مذاقًا مختلفًا مثيرًا .. هذه آخر فرصة في حياتي لتجربة هذا المذاق .. لو رحلنا لانتهى الأمر .. "

كان وجهها الآن في أقبح صورة يجمع بين التوحش والاشمئزاز والشراسة. أبشع نمر غاضب رأيته في حياتي :

ـ"نحن تحت رحمتهم يا حلوف !..."

ـ"أعرف كيف أجعلها تصمت .. والآن أخرجي !"

نظرت لي في كراهية عمياء. لم أعرف من قبل أنها تغار علي لهذا الحد. أعتقد أن الأمر يتعلق بكبرياء الأنثى أكثر منه بالغيرة. في يوتوبيا تعرف أنني مع فتاة أخرى كل يومين تقريبًا فلا تتكلم، لكن الأمر بدا لها هنا مهينًا خاصة أنني لم ألمسها منذ جئنا.

انفردت بـ (صفية) على ضوء المشعل، ومنذ اللحظة الأولى عرفتْ ما أريد و....

لا ..

هذا ليس حقيقيًا !

إنها تقاوم بشراسة وعنف .. تقاوم كثور بري هائج.. تخمش .. تضرب .. تركل .. تبصق .. تصرخ .. تولول .. تتشنج .. تبكي .. تسب .. تلعن .. تعض ... كنت احسب الأمر أسهل من هذا بكثير. المفترض أنها ستذوب لفكرة أنني اشتهيتها. رجال الأغيار ليسوا رجالاً حقًا . لقد قضى الجوع والطعام الفاسد والجوسيبول على رجولتهم، ونحن نظفر بنسائهم بسهولة طيلة الوقت في يوتوبيا، بينما يكتفي رجالهم باصطناع الفحولة والجبروت .. أليست الرجولة حيوانًا يحتاج إلى تغذية جيدة ورياضة وشمس ساطعة ؟.. إذن هم لا شيء .. لا شيء ....

لكنها قاومت بعنف وبسالة، وكنت أنا معتادًا على العنف على كل حال لذا قيدتها تقييدًا بشرائط مزقتها من قميصي القديم الذي

نزعته. كممت فمها فخرست وأراحني هذا من فيض بكتريا الدرن المنبعث من أنفاسها على كل حال ..

اغتصاب مريضة سل !.. سوف تدخل هذه الواقعة التاريخ. ربما أحكيها مرارًا للأصدقاء في جلسات الفلوجستين لو عدت سالمًا.

مددت يدي بقطعة قماش إلى سطل من الماء ملأته هي، ورحت أبلل قطعة القماش وأنظف وجهها وقدميها لتبدو بشرية نوعًا ... بالواقع لم أمس جزءًا منها قبل أن أنظفه بعناية ...

رحت أردد في مزيج من نشوة وكراهية وأنا انتهي:

ـ"يا لقذارتك !... يا لقذارتك !.. هه هه !"

(صراخ مكتوم .. شهيق...)

ـ"ليس فقركم ذنبنا .. هه هه ... ألا تفهمين بعد أنكم تدفعون ثمن حماقتكم وغبائكم وخنوعكم ؟.. هه هه ... "

(أنين .. بكاء ..)

- "عندما كان آباؤنا يقتنصون الفرص كان آباؤكم يقفون أمام طوابير الرواتب في المصالح الحكومية . ثم لم تعد هناك مصالح حكومية .. لم تعد هناك رواتب .. هه هه ..."

(شهيق .. حشرجة ..)

ـ" أنتم لم تفهموا اللعبة مبكرًا لهذا هويتم من أعلى إلى حيث لا يوجد قاع.. هه هه... ما ذنبنا نحن؟"

(دموع .. نهنهة ..)

ـ"عندما هب الجميع ثائرين في كل قطر في الأرض، هززتم أنتم رءوسكم وتذرعتم بالإيمان والرضا بما قسم لكم .. هه هه ... تدينكم زائف تبررون به ضعفكم.. هه هه ... "

(عواء .. غرغرة ..)

ـ"أنتم اقل منا في كل شيء .. هذه سنة الحياة .. يجب أن تقبلوها .. لم يعد أحد قادرًا على تغيير أي شيء.. شيء .. شيء .... شيء .. شيء .. شيء .. هه .. هه ..شيء .. هه .. هه.. شيء .. !"

(توسل مكتوم .. هستيريا ...)

كنت قد انتهيت .. صار جسدي كبالون خاو من الهواء، وفي هذه اللحظة بالذات سمعت جرمينال تقول من وراء ظهري:

ـ"ألم تنته بعد أيها الخنزير ؟.. أخوها سيعود في أية لحظة.."

ارتميت منهكًا على الأرض جوار الفتاة المنهارة، وقلت لاهثًا:

ـ"صحيح .. أخوها .."

ومن جيبي أخرجت المدية .. المدية التي سرقتها من المذبح عندما كنا ننظف الدجاج . وضعتها تحت عنقها وقلت لعينيها الجاحظتين:

ـ"اسمعي .. ولا حرف عما حدث هنا .. لو أن حرفًا قيل فلسوف ....."

هتفت جرمينال:

ـ"أنت لن تقتلها .. هي مجرد طفلة !"

ــــ"ومــن تحدث عن قتلها ؟.. سأقتل (جابر) يا صغيرة .. سترين المدية تمزق أحشاءه قبل أن يفهم معنى كلامك .. ستعيشين وحــيدة للأبــد ولسوف تصير حياتك كلها تكرارًا مملاً لما حدث الآن، لأن (جابــر) لــن يحضر لك الطعام بعد اليوم.. (جابر) لن يحميك .. "

ظلت صامتة فعدت أكرر السؤال:

ـ"هل فهمت ؟"

وبهــدوء أزحــت اللــثام عن فمها .. وفككت قيودها. أمرت جرمينال بأن تعنى بها قدر الإمكان لتبدو بشرية ..

قالت جرمينال وهي تبصق على الأرض:

ـ"هل استرحت يا ابن الــ (...) ؟"

قلت في برود:

ــــ"استمري .. أنت تكتسبين لغتهم وعاداتهم يومًا بعد يوم . هذا مفيد لنا كما تعرفين"

-2-

إلا الحزن والصمت ..

يمكنك أن تغير معالم جريمتك لكن الحزن والصمت يبقيان ..

هكــذا ظل (جابر) ينظر في فضول لأخته وهو يعد حاجيات الفــرار. لكن الفتاة لم تتكلم. إنها باسلة فعلاً.. دعك من أنها كانت صــادقة في مقاومتها لي وأنا لم أر قط فتاة صادقة في مقاومتها. هــناك دومًا لمسة تصنع وادعاء. هذه الفتاة كانت تكرهني فعلاً.. تكره أحشائي كما يقول الأمريكان ..

قال (جابر) بعد قليل وعلى وجهه علامات الجدية :

ــــ"أنا لا أثق بقسمكم لأنكم تتعاملون معنا كأننا تحت مستوى الآدمــية .. وتكذبــون علينا بالسهولة التي يكذب بها المرء على خروف، لكني سأجرب لمرة واحدة .. ما ستريانه سيبقى سرًا .."

ثم أردف وهو ينهض :

ـ"لقد اضطررت لإجراء صفقات كثيرة .. كلفني هذا مالاً.."

قلت في ضيق:

ـ"إن أبي ...."

رفع يده في كبرياء وقال:

ـ"لا أريد سماع كلمة عن أبيك وحياة أبيك ..والآن هيا بنا ."

وتناول أداة غريبة عبارة عن قضيبي خشب متعامدين كأنهما صليب ..

وســط الظــلام مشينا في الحارات والأزقة المتسخة التي لا ينيرها إلا مشعل هنا أو هناك..

وسط باعة السمك الفاسد ..

وسط باعة المخدرات الرخيصة ..

وسط باعة الأجساد ..

وسط الشباب الذين يمزقون بعضهم في مشاجرات لا تنتهي .

وسط الأفاقين والنصابين وباعة الأعشاب ..

وسط برك الماء الآسن وبقع الكيروسين ..

وسط الترنشات التي لم تكسح منذ شهرين..

وسط جثث الكلاب التي تم تجريدها من اللحم ..

وسط باعة الأجهزة المسروقة ..

وســط الصــبية الجالســين يلعبون القمار على قفص دجاج مقلوب ..

وسط كل هذا نبتعد ..

ثلاثة أشباح لكنها لا تجلب الرعب بل تشعر به..

جــرمينال لا تكف عن هرش رأسها وصدرها كأن هذه هي علامة النجاة .. أنا منكم .. أقسم بالله أنني منكم !

* * *

هناك على جدار مهدم جلسنا ..

قال لي جابر وهو يشعل لفافة تبغ:

ـــ"أعتقد أن هناك عيونًا كثيرة تراقبنا .. لذا سيتم الأمر كما يلــي .. ســوف تــدور حول الجدار كأنك تريد قضاء حاجتك ثم تركض عبر الخرابة منحنيًا .. هل تعرف عدو الظليم ؟.. لا ؟ .. هــذه فرصة كي تعرفه .. عندما تبلغ الناحية الأخرى من الخرابة انتظرنا .. نحن سنلحق بك بذات الطريقة .."

كــنا جالســين في الظلام كما قلت لك، فرأيت (جابر) ينزع سترتي المتسخة عن كتفي فيضعها على قطعتي الخشب فتبدو كأن هــناك من يلبسها على كتفيه. فهمت .. مع الظلام والمسافة يشعر مــن يراقبنا أننا ما زلنا ثلاثة. هكذا وثبت لأدور حول الجدار في اللحظة التي رفع فيها رايته الغريبة مرفرفة.

رحت أركض عبر الخرائب وقدمي تلتوي من تحتي وأنفاسي متقطعة . على الأقل لن تطاردني الكلاب المسعورة لأنه لا وجود لهــا.. أركض في الظلام لا أعرف إن كان ما أدوس فيه صخورًا أم فضلات بشرية أم جثثًا متعفنة أم مجرد غبار ..

وصلت إلى النهاية فوجدت جدارًا آخر مهدمًا .. وقفت جواره ألهث ...

بعــد قلــيل ســمعت صوت لهاث آخر .. ورأيت جرمينال تركض وهي منحنية لتلحق بي ..

وقفت جواري وهي عاجزة عن التنفس ..

ســرعان ما ظهر (جابر) وهو يركض بدوره. لقد ترك سترة واحــدة معلقة هناك .. وهي تعني أن اثنين يقضيان حاجتهما بينما الثالث ينتظرهما ..

هـو ذا يتجه إلى وكر قذر نهبط إليه منحدرين على درجات محطمـة .. وفـي نهايـة الساحة ترى حافلات عتيقة يسيل منها الزيت والكيروسين وتهدر بلا انقطاع ..

ـ"أيوه الساحل الشمالي !.. أيوه يوتوبيا !!"

هذه الكلمات جعلت قلبي ينحشر في حلقي ..

الـوطن .. برغم كل شيء هو الوطن ... أنا الذي لا انتمي لمكان ولا أشخاص ولا مبدأ ..

سـقط قلبي في بطني .. معنى هذا أن هناك سبيلاً للعودة .. لكـن مـاذا عـن الحراس ؟.. ماذا عن المارينز والوصول إلى يوتوبيا ؟.. رباه !..

من العسير أن تقترب من يوتوبيا من دون تصريح .. سوف يفرغ فيك المارينز طلقات بنادقهم ..

لن يصغوا لك وأنت تحكي قصصًا معقدة عن تجربة الرجولة وكل هذا الهراء ..

لو لم تتم مكالمة مع أبي فلا جدوى ...

* * *

الـرحلة تنطلق وأنا أرقب (جابر) الجالس صامتًا في الظلام أمامـي .. كـل شـيء فـي الحافلة يئن ويصر ويهتز.. رائحة الكيروسـين تـزكم الأنفـاس. أختلس النظر إلى جرمينال ثم كل الوجـوه التعسة للعمال الذاهبين للعمل في مستعمرات الساحل .. الفـرانين وجامعي القمامة وصائدي الفئران ... كلهم سيء التغذية ممتقع الوجه .. كلهم مهزوم .. كلهم واهن .. كلهم ..

سـوف يـبدأ عملهـم فـي ورديات الليل .. سيعملون عشر سـاعات متواصـلة ثـم يعـودون . معنى هذا انهم يقضون بين ظهرانيهم أقل من سبع ساعات ..

من الخير لهم أن يموتوا هنا والآن.

ربـاه !.. فلوجسـتين !.. كم أتحرق شوقًا له !.. لو سارت الأمور كما أتمنى فلسوف أتذوقه من جديد خلال ثلاث ساعات أو أقل ..

أرقـب معـالم الطريق ونحن نتجه إلى الاسكندرية .. حتى بعلبة الكبريت المعدنية هذه نحن نتحرك للأمام ...

معـالم السـاحل الشمالي .. وجه (جابر) الصلب يرتسم على معـالم الطريق المظلم .. فقط تلتمع عليه أضواء الطريق من حين لآخر ..

ما هي خطته ؟ ..

الاحتمال الأخطر انه يرتب لنا مقلبًا ما .. ربما يريد التخلص منا بعيدًا عن أرضه .. جثتان في الصحراء ولا يعرف أحد من فعلها .. للأسف ليس لدي حل إلا أن أثق به ثقة مطلقة ..

لماذا ينهض هنا ؟... لماذا يتبادل الهمسات مع السائق ؟

إنه يعود ليجلس جوارنا وإن بدا أنه ينتظر شيئًا ..

فجأة توقفت الحافلة وسمعته يقول لنا في الظلام:

ـ"هيا بنا !!"

ماذا تقصد ؟

نحن في قلب اللامكان بالمعنى الحرفي للكلمة ..

-3-

الحافلة تنطلق مبتعدة بمن فيها.. بقعة ضوء تشحب في الظلام .. سفينة أمل تمخر مبتعدة لتتركك في جزيرة قاحلة تموت عليها ...

ظلام الليل والصحراء ... ظلام الاحتمالات والأفكار ..

أعرف أنني أستطيع قهر (جابر) لو هاجمنا .. لن ينتصر الفقر والشحوب وسوء التغذية على الثراء والرياضة منذ الصغر ..

لكنه يملك عنصر المباداة والمفاجأة ويعرف الأرض ...

لو تسرعت بالفتك به فلربما اتضح أنه بريء وأكون قد أضعت فرصتنا ..

(جابر) يمشي وسط الصحراء بين النباتات الشوكية وبقايا الصبار .. يلتف وراء تل صغير ويطلب منا اللحاق به، فهرعت وجرمينال إلى هناك متوقعين الأسوأ..

الأسوأ كان هناك بالفعل وهو رجلان تبدو عليهما الشراسة والقوة ومسلحان .. تبادلت وجرمينال النظرات .. هل حان الوقت أخيرًا ؟

لكن ثلاثة الرجال كانوا راكعين على ركبهم ينبشون الرمال بأظفارهم ومدي صغيرة على ضوء كشاف واهن .. أحدهم نظر

لنا في شراسة كما يفعل كلب تفاجئه أثناء النبش عن عظمة، ثم عاود العمل..

قال أحد الرجلين دون أن ينظر لنا:

ـ"هل أنت ضامن لهما يا (جابر) ؟"

قال (جابر) وهو يواصل الحفر :

ـ"مثل نفسي .."

ثم مد يده ودس أشياء في يد الرجل .. أعتقد أنها مخدرات فالمال لا يبدو كذا .. فتحت فمي لأتكلم فصرخ (جابر) في وجهي:

ـ"اخرس يا (حنفي) !!.. عندما تدخل حاول أن تسرق لنا بعض الفلوجستين .. إن (حبارة) و(شيحة) لم يجرباه قط .."

تلمظ أحد الرجلين حالمًا بينما ظهر الشيء الذي كانوا ينقبون عنه.. بوابة حديدية صغيرة مدفونة تحت طبقات من الرمل، وقد أزاحها المدعو (حبارة) فرأينا درجات خشبية مثبتة في جدار رأسي ..

قال (جابر) وهو يصوب الكشاف إلى داخل هذه البئر:

ـ"انزل يا (حنفي) أنت و(نفيسة).."

أنا (حنفي) وهي (نفيسة) ؟؟ .. لا أحب الاسمين لكن لا أعتقد أن هذا هو الوقت الملائم. على كل حال اندسسنا في الفتحة ورحنا نهبط الدرجات الخشبية في الظلام غير عالمين إلام تقودنا..

وسمعت (جابر) يقول للرجلين:

ـ"سأوصلهما لأقرب نقطة ثم أعود .. انتظراني "

ثم سمعت جسده ورأيت ضوءه ينزل وراءنا .. فما أن صار بيننا في قاع البئر حتى صحت:

ـ"ماذا يحدث هنا ؟"

قال وهو يتقدمنا عبر ممر مظلم:

ـ"أنفاق !... منذ البداية هناك أنفاق سرية يمكننا بها الدخول إلى (يوتوبيا) لسرقة ما نريد .. من السهل أن تغادر (يوتوبيا) لكن من المستحيل أن تدخلها من دون بطاقة (عبودية).. قام هؤلاء البلطجية بحفر هذه الأنفاق وهم يؤجرونها لمن يدفع .. الثمن يكون مالاً أو مخدرات .. طبعًا من الواضح أنني أقنعت هذين أنكما فقيران مثلنا وأنكما تريدان تجربة السرقة .. لو قلت إنكما من أهل (يوتوبيا) لمزقاكما في اللحظة ذاتها.. "

هتفت جرمينال:

ـ"أي أن هذا النفق يقود إلى ..."

ـ"إلى قلب (يوتوبيا).. جوار ذلك (المول) الكبير الذي نسيت اسمه .."

ـ"إليت مول"

ـ"نعم .. حيث ينتشر أمثالكم كالضباع بحثًا عن فريسة .. سعار الاستهلاك واللعاب يتساقط على الأرضية الزلقة البراقة. بينما العبيد والجواري من عندنا يقفون بانتظار تلبية طلباتكم. عبد يجلب لكم العصير.. جارية تساعدكم في اختيار ثوب مناسب. خصي يقف على باب المرقص. كل شيء متاح وللبيع حتى العبيد أنفسهم"

قلت في برود:

ـ"تشبيهاتك شاعرية"

أردف قائلاً:

ـ" سوف تخرجان هناك وأعتقد أنكما لن تجدا صعوبة في الوصول لداريكما .."

قلت في انفعال:

ـ"لماذا تفعل هذا كله ؟"

فقد بدا لي مبالغًا بحق في هذا الذي يفعله...

ربما يتضمن المعروف جزءًا سلبيًا هو ألا يبلغ عنا ..هذا سهل .. لكنه تجاوز هذا الحد إلى الجزء الإيجابي .. أنفاق وبلطجية ودفع مال وتسلل ليلي .. الخ ...

لا أحد يفعل شيئًا من غير ثمن .. الثمن قد يكون مالاً .. قد يكون منصبًا .. قد يكون جسدًا .. قد يكون إحساسًا بالتفوق .. قد يكون قصة تحكيها لأصدقائك وعيناك تلتمعان تيهًا .. قد يكون تقديرًا للذات لا تستحقه..

هناك ثمن دائمًا ...

وأنا لا أقبل الشيء قبل أن أعرف ثمنه...

فكر حينًا .. توقعت ردًا بلاغيًا طنانًا على غرار (لأننا أفضل منكم) أو (لأنني لا أحب الدماء).. الخ .. لكنه اكتفى بأن هز رأسه وقال:

ـ"لأنني أريد ذلك .. "

ثـم ابتسـم وغمغم بشيء في الظلام فسألته عما يقول .. قال بصوت أعلى وهو يواصل طريقه:

ـــ"كـان عـندنا شاعر اسمه (عبد الرحمن الأبنودي).. هل سمعتما عنه ؟"

ـ"لا .."

ـــ"بالطـبع لـم تسمعا عنه .. كان هذا الشاعر يقول: احنا شـعبين.. شعبين.. شعبين.. شوف الاول فين والتانى فين ؟ وآدى الخط ما بين الاتنين بيفوت"

لـم أفهـم شيئًا .. فقط أفهم أنه يغلي من الحقد الاجتماعي .. هذا هو كل شيء ..

قلت له في الظلام:

ـ"برغم كل شيء .. أنت إنسان نبيل .. "

لم يرد وواصلنا تقدمنا .. مشينا نحو عشر دقائق..

بقعـة ضوء تتحرك عبر النفق .. تذيب ظلامًا ثم تغيب وسط ظلام جديد ..

صوت الخطوات ..

صوت اللهاث ..

صوت قطرات العرق تتساقط على الصخر ..

* * *

وفـي الـنهاية أدركـت أننا في قاع بئر أخرى وأن درجات صـاعدة تقـودنا للسطح.. هناك صخور مكومة بحيث تسهل لك

الوصول لأسفل الدرج ..بصعوبة منعت نفسي من الصراخ فرحا وجرمينال راح صدرها يعلو ويهبط ..

قال (جابر) وهو يشير بالكشاف لأعلى:

ـــ"لأسباب واضحة لن ألحق بكما .. أنتما في أمان الآن .. وداعًـا .. فقـط لا تعودا ولا تحاولا صيد واحد آخر منا .. فلن أكون موجودًا المرة القادمة .."

قالت جرمينال في تأثر:

ـ"أنت رائع يا (جابر).. شكرًا لك .."

لم يرد واستدار ليرجع وضوء الكشاف يحيط به كأنه رؤيا ..

لابد أنه ظل محتفظًا بتأثره حتى اللحظة الأخيرة ..

لابـد أن ابتسـامته الخافتة لم تفارق شفتيه بينما وجهه يهوي ليتمرغ في التراب ..

لابد أنه لم يذق الدم الذي سال من شدقيه ..

لابـد انـه لـم يدرك أنني التقطت ذلك الحجر وهويت على مؤخرة رأسه بأقوى ما استطعت ..

اضطررت لأن أقلبه على ظهره فسال الدم كالنهر من الفجوة الدامية التي صنعتها منذ ثانية..

عيـنه الـتالفة تنظـر لي في ثبات بينما تحولت نظارته إلى فتات..

الـتقطت المديـة .. المديـة التي سرقتها من المذبح .. من الغـريب أن مديـة أخرى تطل من حزامه .. لابد أنه كان يخافنا بالقدر الذي كنا نخافه به وأراد أن يؤمن نفسه ...

صرخت جرمينال في هستيريا:

ــ"لماذا فعلت ذلك ؟.. لقد ساعدنا !"

قلت وأنا أقوم بما يجب أن أقوم به:

ـــــ"وانتهى دوره عند هذا الحد !.. إنه أحمق وعليه أن يدفع الثمن .. أنا لن أقوم بكل هذه المغامرة وأعود من دون تذكار .. "

للأســف لن أستطيع أن أحمل جسده صاعدًا الدرجات .. كما أنـــه مـــات على الأرجح فلن يوفر مصدرًا للتسلية .. إذن لم يعد يهمنـــي مـــن أمره سوى هذا الشيء الذي أخذته ولففته في السترة المتسخة التي منحها لي ..

لم يكن هناك غراب .. لم يكن هناك غراب ..

لماذا تذكرت هذا الآن ؟

تـــركته حيث هو وصعدت الدرجات .. ستكون كارثة لو كان قد خدعنا ..

-4-

لكن انتم خلقكم سي الملك

جاهزين للملك..

ايديكم نعمت من طول ما بتفتل ليالينا الحلك

يا عم الضابط احبسنى

سففنى الحنضل واتعسنى

رأينا خلف خلاف..

احبسنى او اطلقنى وادهسنى

رأينا خلف خلاف

عبد الرحمن الابنودى

* * *

فتحة بين الأعشاب يصعب أن يراها من لا يبحث عنها..

تغطي الفتحة قضبان متعامدة جدل أحدهم العشب بعناية بينها لكنـــا عـــندما أزحنا القضبان وأخرجنا رأسينا، شممنا رائحة هـــواء البحـــر .. شـــممنا الليل المخلوط بالعطر واللحم البشري والفلوجستين ..

شممنا رائحة الدولارات وبطاقات الائتمان والخمور الباهظة

رأينا أضواء يوتوبيا تحيط بنا .. على بعد خطوات مول (إليت) المفضل عندي .. أرى لافتته الملونة وزحام السيارات حوله .. نحن إذن في الحديقة الخلفية للمول .. نعم .. أرى تمثال المستحمة العارية الذي طالما حلمت بمضاجعته وأنا صبي ..

حمدًا لله !... لقد نجونا ..

سيكون صعبًا أن نفسر لمن يرانا أننا لسنا من الفقراء المتسللين .. الأصعب أن أخفي هذه اليد التي بدأ الدم يتساقط منها.. لكننا سنقابل مصريين أو إسرائيليين وهؤلاء يمكن التفاهم معهم .. بينما لا يمكن التفاهم مع المارينز الذين يطلقون الرصاص ثم يتكلمون ..

ساعدت جرمينال على الخروج ووقفنا هناك في البرد الذي يبعثه هواء البحر، وسط أضواء المساء الملونة وتعانقنا ..

لقد تمت المغامرة ونجونا !

لقد دخلنا الجحيم وعدنا منه. دسسنا رأسينا بين فكي التمساح وخرجنا ..

قلت لها ونحن نشق شوارع (يوتوبيا) شبه الخالية في هذه الساعة:

ـ"يمكن القول إننا لم نفقد أي شيء .."

قالت وهي تشهق في انفعال:

ـ"سوى ساعات قاسية"

ـ"لابد أنهم قلبوا الدنيا علينا"

ـ"سوف يفهمون ويغفرون"

قالت وهي ترتجف كلمات لم أتبينها فسألتها أن ترفع صوتها.. قالت:

ـ" احنا شعبين.. شعبين.. شعبين.. شوف الأول فين والتانى فين ؟ وآدى الخط ما بين الاتنين بيفوت .. ألم يكن شاعره يقول هذا ؟"

ـ"بلى .. وهو صادق على طول الخط !"

* * *

كانت الاحتفالات صاخبة بعودتنا..

في البداية هناك طبقة واهنة من اللوم والتبكيت .. طبقة ذابت على الفور ..

ثم يبدأ الاحتفال الحقيقي بالبطلين العائدين ..

أنهار من الخمر والفلوجستين سالت .. حكيت قصتنا ألف مرة وفي كل مرة أضيف تفاصيل جديدة تثير الخيال .. لقد صرت رجلاً .. ذهبت إلى هناك وعدت بيد أحدهم ..

كنت أحكي لهم عن (جابر) الأحمق .. (جابر) الساذج الذي لم يستطع أن يفهم قواعد اللعبة ..

حكيت لهم عن صفية المسلولة التي قاومت كأنها الملكة كليوباترا . يجب أن يتناسب حجم المقاومة مع قيمة ما يدافع المرء عنه .. بالنسبة لحالتها لم يكن هناك داع لمقاومة من أي نوع..

قال راسم وهو ينفث الدخان:

ـ"يتوقف الأمر على قيمة ما يدافع المرء عنه بالنسبة له وليس بشكل مطلق .. لو رأيت أمي وهي تدافع عن الفأر الصغير

الألـيف الـذي تـربيه عندما أراد أبي أن يلقي به في البالوعة، لحسـبتها تدافع عن أيقونة مقدسة .. بالنسبة للفتاة كانت تدافع عن أهم شيء لديها .."

ـ"عن بكارتها ؟"

ــ"بـل عن إرادتها .. عن حرية اختيارها .. هذا هو فأرها الخاص"

أطلقـت سبة بذيئة .. تبًا لك عندما تعبث الماريجوانا بخلايا مخك. إنها تجعل الناس أكثر ظرفا لكنها تجعلك أكثر تحذلقًا وميلاً للتفلسـف .. تجعلـك ابن كلب حقيقيًا .. لكل واحد منا فأره الذي يعتبره أثمن شيء في العالم. ربما يراه الآخرون مجرد فأر حقير لكـنه بالنسبة لك أهم شيء في الوجود. ترى ما هو فأري المدلل الأليف؟

أنا فأري المدلل الأليف!

لوحت بالذراع التي قمت بتحنيطها وتجفيفها:

ـ"في صحة جابر"

ـ"وصفية"

ـ"والسرجاني .."

ـ"أجدع ناس.."

ومـن جهـاز الهـاي فـاي تـدوي أغنية جديدة من أغاني الأورجازم:

"ضعي عنقك على الصخرة المقدسة ..

ضعي حياتك على الصخرة المقدسة ..

أنظري لنصل السكين وهو يهبط فوق الوريد الثري

خائفة ؟.. أنا أحب هذا يا صغيرة ..

كـذا أنـت أقوى من الطبيعة ذاتها، لأنك تضخين الدماء في عروقي من جديد ..

أنتشي ..

أفيض ....

في لحظة كتلك أحبك حقًا ..

ضعي عنقك يا صغيرة ..

ضعي عنقك على الصخرة المقدسة "

وتـنهض ماهي لتطوح بحذاءيها وتأتي بحركات مجنونة .. تمـيل بعـنقها كأنهـا تنيمه على صخرة ... تطوح شعرها يمينًا ويسارًا ..

تسقط على الأرض في وضع استسلام كأنها تتأهب للذبح..

كاهنة يوتوبيا الشقراء.

ترتفع موسيقا الأورجازم ونغيب وسط النيران الخضر ...

"ضعي عنقك يا صغيرة ..

ضعي عنقك"

-5-

قطَّـر كـل روائـح الكـون .. قطّـر عبق السراخس في المستنقعات التي خطت فيها الديناصورات منذ ملايين السنين .. قطَر رائحة عرق كليوباترا ودماء يوليوس قيصر .. قطِّر البخور الـذي أشعله الدراويش في ليالي القاهرة الفاطمية .. قطّر النيران التي التهمت القاهرة فيما حكوا لنا، وقطّر عبق كل غانيات باريس راقصـات الكان كان .. قطّر كل روائح حيتان العنبر وكل أنفاس النمور الآسيوية التي تتسلل في ظلام الأحراش .. قطّر الأحراش ذاتها .. قطّر روائح البانسيه والنرجس والليلاك والزنابق .. قطّر كل هذه الروائح معًا ثم ... ثم ماذا ؟.. نسيت ....

أصحو من النوم ..أفرغ مثانتي .. أدخن .. أشرب القهوة .. أحلـق ذقنـي .. أعالج الجرح في جبهتي ليبدو مريعًا .. أضاجع الخادمـة الأفريقية .. أتناول الإفطار ... أصب اللبن على البيض وأمـزق كـل هذا بالشوكة ..ألقي بالخليط المقزز في القمامة ... أتـثاءب .. أضـحك .. أبصـق ... ألتهم اللحم المحمر .. أدس إصـبعي فـي حلقي .. أدخل غرفة نوم لارين لأفرغ ما بمعدتي علـى البساط .. أضحك .. أدس إصبعي في أذني .. آخذ زجاجة ويسـكي من البار وأجرع منها .. أرقص .. أترنح .. أقف فوق

أريكـة .. أتقلـب علَى البساط .. أقرأ الجريدة التي لا تزيد على اجتماعـيات يوتوبيا ...أخرج أنبوب الفلوجستين .. أصب قطرات علـى جلـدي .. أنتشي .. أرى النيران الخضر ... أضحك ... أمشـي عاريًا في الردهة .. ألبس ثيابي .. أرسم على الجدار بقلم الفحـم شـعارات تقـول: اقـتلوا البيض .. أشغل بعض موسيقا الأورجازم ..

سـاعة واحـدة فعلت فيها كل شيء ولم يبق شيء في الحياة يهمني أو أريده !!!!

لكن الهاتف دق ..

كان هذا راسم يخبرني بأمور غريبة:

ـ"هل تعرف أن الطائرات معطلة ؟"

ـ"كلها ؟..لماذا ؟"

حكـى لـي قصـة عجيـبة عن مغامرة قام بها الأغيار من يومـين.. لقد هاجموا قافلة هائلة تحمل البايرول عبر الصحراء .. انـت تعرف أنهم يقومون بإنزاله من حاملات البايرول غربًا. لقد هوجمت القافلة وتم أسر سائقيها . وهو عمل لم يحدث من قبل ولم يتحسـب له أحد. النتيجة هي ارتباك عام. ظل السائقون في الأسر بضع ساعات ثم تم إطلاق سراحهم وقالوا إنهم لاقوا معاملة حسنة لم يفهم أحد سبب هذه المغامرة ولا جدواها.

فقـط عـندما تـم مـلء خزانات الطائرات وحاولت طائرة (مصـطفى بيه) البونانزا الرياضية أن تحلق لم تستطع.. بالتدقيق فـي الأمر اتضح أن ما في خزانها ليس وقودًا .. لا توجد قطرة

بايـــرول فـــيها. لقـــد قـــام أحدهم بملء خزانات البايرول بسائل المجاري !.

التحقيق قال إن هذا ما حدث عندما اختطف السائقون.. لقد تم إفراغ الخزانات بالكامل، ثم جاءت عربات كسح الترنشات اللعينة وقامت بملء الخزانات بمحتواها الكريه.

النتيجة هي أن محركات الطائرات تلفت كلها ..

محركات السيارات تلفت كلها. هذا ما اكتشفه من جربوا ملء خزانات سيارتهم بهذا البايرول المغشوش.

قلت لراسم ضاحكًا:

ـــ"كـــنت ســـأندهش جدًا لو حلقت الطائرات بوقود من الـــ (...).."

وانفجرنا ضاحكين ... وتبادلنا ألف نكتة على هذه الفكرة.

قال راسم بعد ما استنفد قدرته على الضحك:

ـــ"كل هذا جميل، لكن الوضع ليس مريحًا على الإطلاق .. إصـــلاح الطائرات والسيارات يستغرق وقتًا .. هل تعرف معنى هذا ؟.. معناه أننا معزولون فعلاً !"

معزولون فعلاً..

ظلت الكلمة تتردد في ذهني زمنًا ..

* * *

ازداد الأمـــر سوءًا عندما جلس معنا مراد على مائدة الغذاء. قال للارين:

ـــ"لا توجد مواصلات .. الغريب أن رائحة الغائط تتصاعد مـــن كـــل المحركات. رجال المارينز قلقون وقد اتصلوا بوحدات الأســـطول الســـادس .. لابـــد مـــن وجود باب خلفي للفرار كما تعـــرفين، وهـــذا الـــباب أغلق بتعطل الطائرات .. وعدوهم بأن يرســـلوا لنا بعض طائرات الهليوكوبتر بمجرد أن تقترب الحاملة (جيفرسون) من مياهنا الإقليمية .. هذا يستغرق يومين .."

رائحة الغائط من كل المحركات ؟.. بدا لي هذا مضحكًا وإن لم أكلف نفسي بالضحك. سألته في عصبية:

ـــ"هـــل تتوقع أن يحدث شيء في يومين ؟... نحن هنا منذ دهور .."

قال مراد:

ـــ"هـــناك كـــلام يتناثر هنا وهناك... ثمة شيء يتحرك في أرض الأغيار .. إنهم يتحركون ضدنا.."

ـــ"ومـــا الجديد ؟.. إنهم يفعلون هذا مرتين في العام ويخبو حماسهم بسرعة .."

ـ"هذه المرة هم أعنف وأكثر تصميمًا وتنظيمًا .. يقولون إن أحـــدهم ســـاعد اثنـــين من يوتوبيا على النجاة من أرض الأغيار وجعلهمـــا يعيشـــان تحـــت سقفه، لكنهما قتلاه وقطعا يده بعد ما اغتصبا أخته العذراء !.. وجدوا جثته في نفق يستخدم للتسلل إلى هـــنا. القصـــة تســـللت إلـــى كل كوخ وكل زقاق هناك وأشعلت الـــنفوس.. لقـــد تحملوا الكثير لكن يبدو أن هذه كانت القشة التي قصمت ظهر البعير.. "

رحت آكل محاولاً ألا يبدو تعبير مريب على وجهي .. رسمت على وجهي تعبير رجل لم يقطع يد واحد من الأغيار.

قالت لارين في استخفاف:

ـ" إنهم قد سُلبوا كل شيء وظلوا صامتين فماذا يحدثه موت واحد من فارق ؟.. لا أظن الثورات تقوم لأسباب كهذه .. "

ـ"بل لا تقوم إلا لأسباب كهذه .. الصخرة تحملت الكثير من الضربات لكنها تفتتت عند الضربة الخمسين .. لم تكن الضربة الخمسون هي ما فعل ذلك لكن كل الضربات السابقة .. "

ـ"هذه قصص أطفال .."

ـ"وهل الجموع الغاضبة سوى أطفال ؟"

* * *

انتم بعتوا الأرض بفاسها ..بناسها
فى ميدان الدنيا فكيتوا لباسها
بانت وش وضهر...
بطن وصدر.
والريحه سبقت طلعة أنفاسه
واحنا ولاد الكلب الشعب
احنا بتوع الأجمل وطريقه الصعب
والضرب ببوز الجزمة وبسن الكعب
والموت فى الحرب..

عبد الرحمن الابنودى

* * *

كان اسمه جابر .. وقد كان أحمق لم يفهم قواعد أي شيء... بشكل ما يستحق الفقراء كل ما هم فيه .. إنهم أقل ذكاء من آبائنا .. إنهم ضعيفو الإرادة خاملون .. تركوا نفسهم يُسرقون كل هذا الزمن من دون أن يحركوا إصبعًا .. هم بهذا انحدروا إلى درجة أقل من مرتبة الحيوان .. حتى النحل يلدغك لو حاولت سرقة عسله، والدجاج ينقر أظفارك لو حاولت سرقة البيض .. بينما هم ظلوا خائفين صامتين ..

ما دامت الحياة ممكنة فلنبق صامتين ...

ما دام عشاء الليلة موجودًا فلنبق صامتين ..

لهذا لا احمل أي تعاطف نحوهم وقد زادتني هذه المغامرة مقتًا لهم .. حتى (جابر) هذا – يرحمه الله – كان مجرد متحذلق لا يكف عن الثرثرة ولا يفعل أي شيء ..

(مايك رودجرز) رجل المارينز جاء إلى دارنا ولم يكن متأهبًا للمزاح. عرفت أنه يقوم بجولة على كل القصور هنا مع رجال في سيارة جيب عسكرية لم تتلفها مياه المجاري. قال إن علينا ألا نغادر بيوتنا إلا للضرورة .. قال إن علينا ألا نقلق . كل شيء تحت السيطرة ..

هذه العبارة وحدها (لا نقلق فكل شيء تحت السيطرة) تعني أن نقلق جدًا ..

سأله (مراد) عما هنالك .. فقال إن الفقراء ثائرون .. ثائرون ويتقدمون في جموع منظمة عبر الصحراء ....

ثم أضاف في لهجة ذات معنى:

ـ" لا أريد أن أثير ذعر أحد لكن ربما نطلب منكم الفرار في أية لحظة !"

ـ"ومتى ؟"

ـ"عندما تصلنا طائرات الهليوكوبتر التي طلبناها .."

قال له مراد في توتر وقد بدأت شفته السفلى ترتجف:

ـ"يجب أن تحموني .. سوف أدفع لك مكافأة خاصة .."

قال مايك بطريقته الأمريكية التي تستنسخ رعاة البقر:

ـ"أنا أتقاضى راتبي عن حماية يوتوبيا كلها، وهو كاف لي.. لا تقلق"

كدت أصيح في مراد: لماذا ترتجف ؟

لم لا تكون أكثر كبرياء ؟

لم لا تكون أكثر وقارًا ؟

ما أتوقعه من أبي – لو كان حقًا أبي – هو أن يغضب ولا يخاف .. يحتقر ولا يرتجف .. يغتاظ ولا يقلق.. يشتم ولا يلوم.. الرحيل ؟...

الشتات ؟

هذا لن يكون .. هذه أرضي وهذا عالمي .. ولدت هنا .. لو كان أبي قد سرق هذه الحقوق فهي قد صارت لي بحكم الوراثة، ولن أتخلى عنها من أجل أمثال (جابر) والمتسولين وعاهرات الأزقة ..

* * *

هرعت إلى البوابات ..

لارين تناديني ..

جرمينال تناديني ..

رودجرز يقول لي أن ابتعد ..

لكني أشق طريقي بين الجند الذين اتخذوا أوضاع تأهب للقتال وأعدوا قنابل الغاز والبازوكا ..

لا أحد منهم يجسر على التعرض لي لأنهم يعرفون من أنا، لكنهم يحاولون منعي في غير حماس..

أرفع رأسي لأرمق خارج البوابات ..

فأشهق ..

رأيتهم هناك على مدى الأفق قادمين .. يحملون المشاعل ويصرخون غضبًا ..

بعد ربع ساعة سيكونون هنا ..

سيكونون بيننا ..

بيومي ومتولي وعبد الظاهر والسرجاني وصفية وعواطف وعزة ومينا وزينهم وشحاتة وعباس وصفوت وعبد الله ومرسي وعدنان وزلطة و ....

كلهم هنا ....

مايك يقول لي:

ـ"ابتعد الآن من هنا .. اتفقنا ؟.. إن بعض الطلقات سوف تطفئ حماسهم .. بعد أول خمسمائة قتيل سوف ينظرون للأمور بشكل مختلف..."

انتـــزعت البندقـــية الآلـــية مـــن يدَ جندي المارينز الواقف جـــواري، وصوبتها نحو كتلة البشر القادمةِ في الأفق .. لم أفطن إلـــى إننـــي لم أجرب هذا من قبل، ولم تفتَ من شجاعتي الضربة القوية التي تلقيتها في ساعدي لدى الارتداد ..

هكذا رحت أطلق النار ..

أطلق النار ..

أطلق النار..

"في لحظة كتلك أحبك حقا ..

ضعي عنقك يا صغيرة ..

ضعي عنقك على الصخرة المقدسة "

أطلق النار ...

أطلق النار..

" سففنى الحنضل واتعسنى

رأينا خلف خلاف..

احبسنى او اطلقنى وادهسنى

رأينا خلف خلاف"

تمت

تجليات أدبية

كنت أقول لهم:

ـ "هأنتم أولاء يا كلاب قد انحدر بكم الحال حتى صرتم تأكلون الكلاب ..! لقد أنذرتكم ألف مرة .. حكيت لكم نظريات مالتوس وجمال حمدان ونبوءات أورويل وهـ. ج .ويلز .. لكنكم في كل مرة تنتشون بالحشيش والخمر الرخيصة وتنامون ... الآن أنا أتأرجح بين الحزن على حالكم الذي هو حالي، وبين الشماتة فيكم لأنكم الآن فقط تعرفون .. غضبتي عليكم كغضبة أنبياء العهد القديم على قومهم، فمنهم من راح يهلل ويغني عندما حاصر البابليون مدينته .. لقد شعر بأن اعتباره قد تم استرداده أخيراً حتى لو إنني ألعنكم يا بلهاء .. ألعنكم" ! لكن ما أثار رعبي أنهم لا يبالون على الإطلاق..

لا يهتمون البتة..

إنهم يبحثون عن المرأة التالية ولفافة التبغ التالية والوجبة التالية ولا يشعرون بما وصلوا إليه..

الفوتوغرافيا وتصميم الغلاف : أحمد اللباد

